

القسم الرابع

السودان

Obaikandi.com

## الفصل الأول

### الجغرافية والتاريخ

١

#### الجغرافية<sup>(١)</sup>

السودان جنوبي مصر فى القارة الإفريقية ، ويمتد على جانبى نهر النيل من وادى حلفا عند خط عرض ٢٢° شمالا إلى خط عرض ٤٠-٣° إلى الجنوب ، وهى مسافة تقدر بحوالى ألفى ميل طولاً وتبلغ المسافة من الشرق إلى الغرب نحو ألف ميل عرضاً . وتبلغ مساحة السودان حوالى مليون ميل مربع ، وهو ثلاثة أقسام : السودان الشمالى الواقع بين وادى حلفا والخرطوم ، والسودان الأوسط الواقع بين الخرطوم وحوضى نهر السوبات وبحر الغزال ، والسودان الجنوبى الواقع بين هذين الحوضين والحوض الجنوبى لنهر النيل . وليس هناك حدود طبيعية بين السودان والكنغو ولا بينه وبين الحبشة ، واتفق على خطوط فاصلة بينه وبين القطرين جميعاً .

والصحراء تطل على جانبى النيل فى السودان الشمالى وتتخللها تلال صخرية كثيرة ، أما فى السودان الأوسط جنوبى الخرطوم فتقل التلال ، ويصبح السطح أشبه سهل ، ويمتد السهل شرقاً حتى مرتفعات الحبشة وجنوباً شاملاً السودان الجنوبى حتى هضبة البحيرات الاستوائية . ويرفد النيل من الحبشة نهران : نهر النيل الأزرق ويصب فيه مياهه بالقرب من الخرطوم ، ونهر عطبرة ويصب فيه شمالى مدينة الدامر حاملاً ذخيرة كبيرة من الطمى . وأخصب أجزاء السودان أوسطه أو بعبارة أخرى السودان الأوسط ، ففى شرقه حتى تلال الحبشة سهل طمى خصب يحتضنه النيل الأزرق من جهة والنيل الأبيض من جهة ثانية ، ويسمى أرض الجزيرة ، وتبلغ مساحته نحو مليون فدان وتوجد فيه الحبوب والقطن . وغربى السودان الأوسط سهول رملية تمتد حتى مرتفعات كردفان بل حتى جبل مرة فى دارفور وما وراءه وأيضاً حتى جبال النوبة وخط تقسيم المياه بين حوض النيل وحوض بحيرة تشاد . وهذا الغرب كله مراعى واسعة يتجول فيه أهله صيفاً وراء قطعانهم من الأنعام : الإبل والأغنام ويزرعون فى بعض البقاع الذرة والدخن ، ويعنى سكان جبال النوبة بالزراعة وخاصة زراعة القطن .

وفى الشرق الاقليم بين حوضى النيل الأزرق وعطبرة يسمى سهل البطانة وتكثر فيه التلال

للدكتور إبراهيم رزقانة ودائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر فى جغرافية السودان كتاب السودان ووادى النيل للدكتور محمد عوض محمد والجغرافية البشرية

كلما اتجهنا شرقا حتى مدينة كسلا ، وعندنا يظهر خط الجبال الذى يفصل بين نهاية سهل البطانة وبداية جبال إريتريا . وفى هذا السهل مراعى واسعة ومناطق زراعية على شواطئ النيل ونهر عطبرة ويزرعون الحبوب والقطن .

وعلى شواطئ النيل فى السودان الشمالى تزرع الذرة ، وشرقى السودان الشمالى سهول تمتد شرقا حتى البحر الأحمر وشمالا حتى الصحراء الشرقية فى مصر ، وتسكنه قبائل مختلفة أهمها البجة وتكثر فيه المراعى ويعيش سكانه على الرحلة وراء أنعامهم من مرعى إلى مرعى . ويختلف فيه زمن نزول المطر ففى الصيف يسقط فى الداخل ، ويزيد من الشمال إلى الجنوب ، وفى الشتاء يسقط على الساحل والتلال الشرقية . وأهل البجة الشماليون يسمون البشاريين ، وأكثر عملهم فى مناجم الذهب ، وأهل العشائر القريبة من ميناء بورسودان على البحر الأحمر يعمل كثيرون منهم فيها ، والعشائر النازلة بين كسلا وسنكات فى الطريق إلى بورسودان يعملون فى دلتا خور القاش حيث يزرعون القطن والذرة ، وأبناء عمومتهم النازلون على حدود إريتريا يزرعون القطن فى دلتا خور بركة عند طوكر .

والسودان الجنوبى الممتد جنوبى نهر السوياط وبحر الغزال تغطيه الحشائش والأدغال شمالا ، ويتحول فى الجنوب إلى مستنقعات تغطىها الغابات والبردى وحشائش مختلفة . وتؤثر هذه النباتات تأثيرا كبيرا على مياه النيل المنحدرة من بحيرة البرت إلى بحر الغزال إذ تفقد نحو نصفها بسبب سدود النباتات التى تعترض مسيرتها ، كما تعترض مسيرة بحر العرب المنحدرة مياهه شرقا إلى بحر الغزال . وتجرى فى هذه المنطقة روافد عديدة للنيل وترتفع بها بعض أجزاء يننى عليها سكانها قراهم ويزرعون أنعامهم ، ويزرعون بعض بقاعهم ، مع ملاحظة أن المستنقعات تكثر كثرة مفرطة فى أقصى الجنوب . وبجانب الزراعة أحيانا والمراعى يصيدون من المياه الأسماك ومن الغابات المجاورة بعض الحيوانات وخاصة فى الأنحاء الغربية .

والمناخ فى السودان الشمالى شديد الحرارة صيفا . وهى شدة تظل من شهر أبريل إلى شهر أكتوبر ، وتبلغ فى أكثر الأحيان ٤٠°م ويزيد الجو الحار قسوة وشدة ما تحمله رياح السودان المحلية المسماة بالهبوب من الرمال . والسودان الأوسط والجنوبى شديدا الحرارة أيضا إلا أن حرارتهما لا تبلغ فى الشدة مبلغ حرارة الإقليم الشمالى صيفا ، وأحرُّ شهور السودان الجنوبى شهور يناير وفبراير ، ثم يأخذ مطر الصيف فى النزول فيقلل درجة الحرارة تدريجا . ودرجة الحرارة فى دارفور أقل منها فى كردفان والخرطوم لأنها أكثر منهما ارتفاعا فوق مستوى سطح البحر . والمطر فى السودان الجنوبى غزير ، ويبدأ فصله هناك من شهر مارس ، ويأخذ فى الازدياد بالأشهر التالية ويبلغ الذروة فى شهرى يولية وأغسطس ، ثم يأخذ فى التناقص حتى شهر نوفمبر ، وأشهر ديسمبر ويناير وفبراير هناك أشهر الجفاف .

## التاريخ

(أ) السودان في العصور<sup>(١)</sup> القديمة

يرتبط السودان في تاريخه السحيق بمصر منذ عهد الأسرات الأولى لحضارة قدماء المصريين بعامل حفاظ تلك الأسرات على الأمن في جنوبي مصر وعلى طريق التجارة . وفي أخبار الأسرة الرابعة أن سنفرو قام بحملة في الجنوب ، لعلها كانت حملة تأديبية ، وتجدد الصلات في عهد الدولة الوسطى بغرض السيطرة على أرض النوبة في الجنوب وأخذت هذه الصلات تتسع في عهد الدولة الحديثة إذ مدت سيطرتها إلى الشلال الرابع . وسميت الأراضي الممتدة إلى ذلك الشلال - منذ ذلك الحين - باسم أراضي النوبة وكانت قسمين شماليا وجنوبيا ومُصرت تماما في عهد تلك الدولة ، وسكن النوبة الجنوبية كوشيون طُبعوا بطوايح الحضارة المصرية كما تدل آثارهم المكتشفة في أراضيهم ، وكان الحاكم هناك يعد نائبا للملك مصر . ويدور الزمن دورات ويدخل الليبيون مصر ويطرودون منها ، ويتسمى حكامهم باسم الملوك . وتلى ذلك حقبة غامضة لا نكاد نعرف عنها شيئا ، وتكونت حينئذ ثلاث دول نوبية : الأولى في الشمال وعاصمتها نوس وتسمى نوباديا بعد الشلال الأول والثانية في الوسط بإقليم دنقلة وتسمى مقرة . والثالثة جنوبي الخرطوم مباشرة وعاصمتها سوبا وتسمى عُلوة .

ولما اضطهدت روما المسيحية المسيحيين في مصر فرُّ كثير من معتققي المسيحية إلى نوباديا دولة النوبة الشمالية ، وهناك أخذوا يدعون لدينهم المسيحي واعتنقه بعض النوبيين ، ولما أصبحت المسيحية في روما دين الدولة الرسمي في عهد قسطنطين سنة ٣١٢ للميلاد نشطت في نوباديا البعثات التبشيرية ، ومن اشتهروا بهذا النشاط التبشيري تيودور أسقف أسوان وفيلة ونزل نوباديا واختلط بالزعماء النوبيين فيها واعتنق كثير منهم الدين المسيحي كما اعتنقه كثير من أهل نوباديا .

واتسعت حركة التبشير للدين المسيحي في عهد الإمبراطور جوستينيان (٥١٧ - ٥٦٥ م) وكانت الكنيسة المصرية تنادى بالطبيعة الواحدة للمسيح ضد القائلين من كنيسة روما والقسطنطينية بأن للمسيح طبيعتين . وحاول جوستينيان أن يرسل بعثة إلى نوباديا للدعوة إلى عقيدته ، ووصلت إلى جزيرة فيلة مع أسقفها تيودور ، فجهزها ورافقها إلى نوباديا للدعوة إلى عقيدته وسارعت الكنيسة القبطية بإرسال بعثة للدعوة إلى عقيدتها برياسة جوليان ، ووصلت

والحديث لنعم شقير والسودان في دائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر في تاريخ السودان بالعصور القديمة كتاب السودان عبر القرون للدكتور مكى شيكة (نشر وتوزيع دار الثقافة ببيروت) وانظر تاريخ السودان القديم

البعثة إلى جزيرة فيلة وجهازها ورافقها إلى نوباديا ونجحت البعثة في مهمتها وأخفقت بعثة الإمبراطور جوستينيان ، وتوفي جوليان فعُين مكانه أسقفا لبلاد النوبة لونجينيوس سنة ٥٦٩ للميلاد ، والتفوا حوله ، ودعاه ملك علوة في الجنوب ، فذهب إليها وأصبحت مسيحية يعقوبية تدين بعقيدة مصر في طبيعة المسيح الواحدة . وأخذت دولة مقرة تدخل بدورها في المسيحية ، ويقال إنها اعتنقت أولا فكرة الطبيعتين في المسيح ثم تركتها إلى فكرة الطبيعة الواحدة مثل نوباديا وعلوة ، ونظن أنها تأخرت في التنصر بعد نوباديا وعلوة وأنها أخذت بعد ذلك في التنصر تدريجا على مذهبهما اليعقوبى ، وأنها لم تبدأ تنصرها على مبدأ الطبيعتين كما يقال . ويبدو أن مملكة نوباديا ذابت في مملكة المقرة ولم يعد هناك سوى مملكتين : مملكة مقرة ومملكة علوة ، وذلك إما قبيل الإسلام أو بعده بقليل .

### (ب) السودان<sup>(١)</sup> في العصور الإسلامية

ذكرنا في حديثنا عن فتح العرب لدول المغرب الأقصى أنهم لم يكونوا غزاة فاتحين طلبا لمغانم مادية إنما كانوا دعاة للإسلام مجاهدين ، ونرى عبد الله بن سعد بن أبي سرح والى الخليفة عثمان على مصر بعد أن يتم له فتح ليبيا وتونس يوجه حملة إلى أرض النوبة سنة ٣١ هـ/٦٥١ م تتوغل حتى دنقلة عاصمة دولة المقرة واضطرت القائمين عليها إلى عقد معاهدة جاء فيها أن على أهل مقرة حفظ المسجد الذي بناه المسلمون بدنقلة وخدمته وإسراجه وأن لا يتعرضوا لمسلم يصلى فيه ، ويؤدوا لمصر سنويا ثلاثمائة وستين من شباب رقيقهم ذكرنا وإناتا ، وتعهدت مصر بإمدادهم سنويا بكميات من الحبوب والملابس . وظلت علاقات الدول الإسلامية في مصر بمملكة مقرة النوبية قائمة على أساس هذه المعاهدة نحو ستة قرون .

وكانت قبائل البجة السودانية تنزل في الصعيد بالصحراء شرقى أسوان إلى دهلك ( مضوع ) وقامت بغارات على أسوان في عهد المأمون العباسى فأرسل إليهم حملة بقيادة عبد الله بن الجهم سنة ٢١٧ هـ/٨٤١ م وهزمهم وأملى عليهم معاهدة قبلوها ، فيها أن يؤدى ملك البجة أو أميرهم خراجا سنويا : مائة من الإبل أو ثلاثمائة دينار وأن يحترم البجة الإسلام ولا يقتلوا مسلما . وأهم من ذلك « أن عليهم أن لا يهدموا شيئا من المساجد التى بناها المسلمون فى سائر بلادهم طولا وعرضا » مما يدل على أنه كان قد نزل بديارهم عرب مسلمون بنوا هذه المساجد ، وكانت قد نزلت بينهم - قبل هذا التاريخ فيما يبدو - قبائل أو بعبارة أدق جماعات

عبد المجيد عابدين ( طبع جامعة الخرطوم ) والإسلام والنوبة للدكتور مصطفى محمد مسعد وكتاب العربية فى السودان للشيخ عبد الله عبد الرحمن ودائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر فى هذا الموضوع خطط المقرئى فى مواضع متعددة وكذلك مروج الذهب للمسعودى وتاريخ ابن خلدون والسودان عبر القرون للدكتور مكى شبيكة ص ٢٥ وما بعدها وكتاب دراسات سودانية للدكتور

من قبيلتي بليّ وجُهينة للرعى وللتجارة ولإستخراج الذهب فى منطقة العلاقى ، وعبرت البحر الأحمر جماعات من هوازن ونزلت فى إقليم البجة ثم رحلت إلى منطقة كسلا داخل السودان . ونجد البجة فى عهد المتوكل تعود إلى العصيان وتحاول الاستيلاء على مناجم الذهب فى العلاقى من أيدى العرب ، ويرسل إليهم المتوكل جيشا سنة ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م بقيادة محمد بن عبد الله القمى ويتغلب عليهم ، ويطلب ملكهم الصلح على أن لا يتعرض للعرب العاملين فى معدن الذهب ويدفع الخراج المفروض سنويا . ويزور بغداد وتبهره حضارتها .

وعندما استولى أحمد بن طولون على زمام الحكم بمصر سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م أرسل إلى بلاد البجة والنوبة حملة بقيادة أبى عبد الرحمن عبد الله بن عبد الحميد العمري واشترك فيها كثير من قبيلتي ربيعة وجهينة ، ونزل كثير من جنوده فى النوبة وأرض البجة . ويذكر المسعودى الذى زار مصر سنة ٣٢٨ هـ / ٩٤٠ م أن ربيعة اختلطت بالبجة فى أرض المناجم وأصبحوا أسرة أو قبيلة واحدة . ويذكر المقرئى أن ابن طولون جند من النوبين أربعين ألفا أخفهم بجيشه ، ولا بد أنهم جميعا أسلموا أو لعل كثيرين منهم كانوا مسلمين قبل استخدامه لهم .

وبدون ريب هيا نزول القبائل العربية الكثيرة فى البجة والنوبة لاعتناق كثيرين منهما الإسلام ، ومع ذلك ظلت الكثرة فى النوبة مسيحية . ويزور بلاد النوبة فى أوائل عهد الفاطميين ابن سليم الأسوانى ، ويروى المقرئى عنه أن المسلمين هناك معززون وفى حالة استقرار وأن كثيرين من النوبين اعتنقوا الإسلام مع تمسكهم بلغاتهم وجهلهم للعربية . ويذكر ابن سليم أن المسلمين تغلغلوا فى الأراضى السودانية حتى علوة جنوبى الخرطوم ، واستطاعوا فى القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى أن يبنوا لهم مسجدا فى سوبا عاصمة علوة . وكانت أم الخليفة المستنصر الفاطمى فى القرن الحادى عشر الهجرى سودانية وبلغ المجندون من النوبة فى الجيش الفاطمى - بتشجيع منها - خمسين ألفا . وأصبح للعرب من بنى ربيعة - فى العهد الفاطمى - مساكن على وادى العلاقى الممتد من أسوان إلى عيذاب على البحر الأحمر وما به من مناجم الذهب ، وفى سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م أعلن شيخهم دخوله فى طاعة الفاطميين فلقبه الخليفة الفاطمى المستنصر بلقب كنز الدولة وعُرف قومه بالكنوز ، ولما استولى الأيوبيون على صولجان الحكم فى مصر من أيدى الفاطميين انسحب عرب الكنوز من حدود أسوان إلى بلاد النوبة . وكان ثغر عيذاب قد ازدهر منذ العصر الفاطمى بسبب احتلال حملة الصليب لفلسطين وقيام مملكة بيت المقدس وتحول الطريق الرئيسى لحجاج مصر والبلاد المغربية إليه .

وفى سنة ٦٧٠ هـ / ١٢٧٢ م أغار النوبيون على ميناء عيذاب ونهبوا متاجره وقتلوا الفاضى والوالى عليه من قبل مصر لعهد الظاهر بيبرس ، وأغاروا على أسوان ونهبوا أسواقها ، وأرسل بيبرس فى السنة التالية حملة إلى النوبة يقودها والى قوص ، ووصل إلى دنقلة وملك النوبة داود يفر أمامه . وجاء إلى القاهرة ابن أخته شكنده متظلما منه ، واتتهز الفرصة بيبرس ، فجهز له

جيشا مع بعض قواده ، ومضى الجيش حتى دنقلة ، ولقى داود وجماعته وهرب ، وتوج شكنده ( إسكندر ) ملكا على مقرة بنفوذ وقوة الجيش المصرى المملوكى مع إعلان أنه نائب للسلطان وعليه أن يرسل إليه نصف ما يجمعه من الضرائب والجزية على الشباب من غير المسلمين وكانت فى واقعها ضريبة دفاع ، وبذلك عُدَّ أهل مقرة المسيحيين أهل ذمة . وتوفى شكنده سنة ٦٧٥ هـ/١٢٧٧ م وتولى بعده أمير من البيت المالك دون رجوع إلى السلطان قلاوون الذى خلف الظاهر بيبرس فأرسل إلى بلاد النوبة حملة قضت على الملك الجديد ، ونصبت سمامون ملكا على مقرة ونابيا لقلاوون بنفس شروط شكنده السالفة غير أن سمامون لم يلبث أن أظهر عدم إخلاصه وولائه لقلاوون ، فأرسل إليه حملة تأديبية بقيادة أيمنم والى قوص ، وهزم سمامون وفر إلى الجنوب وأقيم مكانه ابن أخته ورأى قلاوون أن يبقى معه المملوك أيمنم .

وبعد عودة الجيش المصرى المملوكى اضطر سمامون الملك الجديد نائب قلاوون وأيمنم إلى العودة إلى القاهرة فجهز قلاوون حملة كبيرة لمنازلة سمامون سنة ٦٨٧ هـ/١٢٨٩ م ووصل الجيش دنقلة ففرَّ سمامون أمامه متوغلا فى الجنوب ، وكان الملك الجديد توفى فى الطريق ، فنُصِّب ابن أخته بدنقلة ملكا على مقرة ، وبقيت هناك فرقة من الجيش المصرى مع أمير مملوكى . وعاد سمامون ثانية إلى دنقلة ، وقبض على الأمير المملوكى وأرسله ورجاله إلى القاهرة وقتل الملك الجديد ، وأرسل إلى قلاوون متعهدا له بأداء كل الالتزامات ، وقبِلَ قلاوون منه ذلك وتوفى وخلفه ابنه خليل فامتنع سمامون عن أداء الجزية والضرائب ، وجهاز له السلطان خليل حملة فرَّ أمامها من دنقلة ، ونُصِّب مكانه ملك جديد ، وكان الأمير عبد الله برشمبو لجأ إلى القاهرة واعتنق الإسلام ودخل فى ولاء محمد الناصر بن قلاوون ، وكان من الأسرة النوبية المالكة فرأى الناصر تعيينه نابيا له فى دنقلة وملكها مسلما عليها لأول مرة سنة ٧١٦ هـ/١٣١٦ م وأرسل معه حملة لتنفيذ ذلك ، وبذلك استولى على صولجان الحكم فى مقرة المسيحية أول ملك مسلم . ولم يلبث أن نازعه الملك شيخ ربيعة الملقب بكنز الدولة ، واستطاع القضاء عليه ، ونُصِّب شيخ ربيعة نفسه ملكا على مقرة ، ودخلت معه إلى أرض النوبة قبائل عربية كثيرة عملت على نشر الإسلام فيها بحيث يأخذ المسيحيون هناك فى التضاؤل ، ولا يبقى منهم فى نهاية القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى إلا عدد قليل جدا . وتلك حسنة واضحة لاقتحام القبائل العربية لأرض النوبة ، وهذه الحسنة رافقها توزيع أراضي النوبة بين القبائل العربية وقيام إمارات كثيرة صغرى فيها مما قضى نهائيا على مملكة المقرة .

وكانت الحدود الشمالية لمملكة علوة الواقعة جنوبى مملكة مقرة تسمى الأبواب وكان يقوم عليها حاكم يسمى ملك الأبواب ، وخلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد كان يرسل لسلطين المماليك بولائه ، وحين كان يعصى ملك مقرة هؤلاء السلاطين ويُفَرُّ إلى الأبواب كان كثيرا ما يقبض عليه ويرسل به إليهم . ومنذ قامت فى دنقلة دولة إسلامية سنة ٧١٦ هـ/١٣١٦ م

أخذت تضعف صلات مملكة علوة بالكنيسة يعقوبية فى الإسكندرية ، إذ قطع الاتصال بينهما فلم يعد يأتيهم من الإسكندرية أساقفة ، وأهملت الطقوس الدينية وهجرت الكنائس . ورافق ذلك انتشار القبائل العربية من مفرة إلى أراضى علوة وسهولها وتغلبهم عدديا على سكانها وامتزاجهم بهم ، كل ذلك أسرع بأهل علوة إلى اعتناق الإسلام : المسيحي منهم ومن كان لا يزال على دينه الوثنى .

ولم أتحدث عن الإسلام فى غربى السودان حتى الآن ، ومررنا فى حديثنا عن موريتانيا مدى نشر دولة المرابطين بقيادة أبى بكر للإسلام فى إفريقيا المدارية وتغلغله به إلى حوض النيجر وبلاد البرنو والكانم ، وكان ملوك الكانم من الطوارق الملتزمين المسلمين وكانوا تجارا من قديم واستطاعوا أن يسيطروا سلطان دولتهم الإسلامية من بحيرة تشاد إلى غربى السودان وأرض النوبة ، وكان لتجارهم عمل عظيم فى نشر الدعوة الإسلامية غربى السودان ، وأهم من ذلك الكتلة الضخمة من قبيلة زوارة البربرية المسلمة التى كانت تنزل فى إقليم فزان ، إذ هاجرت إلى إقليمى واداي ودارفور غربى الخرطوم وهاجرت معها كتلة من عرب الشوا أو الشاوية أى رعاة الشاة ومنهم فى غربى السودان السلامات وخزام والجعادنة والحمايد والدكاكير ، وهاجر بعدهم من فزان أولاد سليمان حين استولى الأتراك العثمانيون على ليبيا وكوّن هؤلاء العرب ومن صحبهم من البربر مملكة إسلامية مبكرة فى إقليمى دارفور وواداي بين سنتى ٤٧٨ هـ/١٠٨٥ م و ٤٩١ هـ/١٠٩٧ م ومن سلاطين تلك المملكة سليمان وقد شملت سلطنته الكانم بجانب واداي وشطرا كبيرا من دارفور ، وورث عنه هذه السلطنة ابنه دونامة (٦٠٧ هـ/١٢١٠ م - ٦٢١ هـ/١٢٢٤ م) . وهذا بالإضافة إلى ما كان يمر بالسودان الغربى من حجاج إفريقيا المدارية . وكل ذلك عجل بانتشار الإسلام فيه .

وواضح من كل ما سبق أن الإسلام انتشر فى السودان تدريجا ، ويبدو أن انتشاره فى غربى السودان كان أسرع من انتشاره فى شرقه وفى حوض نهر النيل السودانى نفسه ، ولم ينتشر - كما رأينا - بالسيف ، إنما انتشر بالموعظة والكلمة الطيبة .

### ٣

#### (ج) دولة الفونج<sup>(١)</sup>

هى أول دولة إسلامية ذات نظم سياسية وإدارية تظهر فى السودان الأوسط قاعدتها

القديم والحديث لنعم شفير وكتاب قياتل من السودان الأوسط والسودان الغربى للدكتور عبد المجيد عابدين : فصل سقوط الممالك النوبية وقيام الفونج .

(١) انظر فى دولة الفونج مخطوطة كاتب الشونة فى تاريخ السلطنة السنارية والإدارة المصرية وكتاب السودان عبر القرون للدكتور مكى شيكة وانظر تاريخ السودان

سنار على النيل الأزرق ، واختلفت الآراء فى أصل الفونج ، فقيل إنهم من إقليم البرنو دخلوا السودان من غريبه فى القرن الخامس عشر الميلادى ، وقيل هم من الشلوك القاطنين فى جزر النيل الأبيض ، وقيل هم من أعالي النيل الأزرق من إقليم فازوغلى ، وكانوا هم ينسبون أنفسهم إلى العرب ، ويقولون إنهم من نسل بعض بنى أمية الذين فروا من الشام أثناء مذابح العباسيين لأبناء أسرتهن فى أول استيلائهم على الحكم ، وكانهم تغلغوا فى الفرار حتى وصلوا إلى منطقة سنار على النيل الأزرق . وكانت العربية لغة دولتهم الرسمية ، وكانوا يكتبون بها وثائقهم وبذلك كانوا دولة عربية إسلامية ، وأول قيام تلك الدولة يؤرخ له بسنة ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م وكان يرأسها ملك يسمى « عمارة دونقس » وكانت مملكة علوة فى سوبا قد تضعضعت ، فتحالف عمارة دونقس مع عبد الله جماع شيخ عرب الفواصمة من جهينة وشيخ قبائل العبدلاب ، وكان يسود المنطقة من التقاء النيلين الأبيض والأزرق مع الامتداد شمالا ، والتقى الحليفان مع قوات مملكة علوة وانتصرا عليها انتصارا حاسما ، وفرت فلولها إلى كردفان والصحارى وذابوا فى سكان البلاد من المسلمين . وانتهت بذلك مملكة علوة واتخذ دونقس مدينة سنار عاصمة له ، وأصبح عبد الله جماع نائبا له فى الجزء الشمالى من الدولة . وحين استولى العثمانيون على مصر مدّوا حدودهم المصرية إلى مدينتى سواكن ومصوع على البحر الأحمر سنة ٩٢٧ هـ / ١٥٢٠ م وأقاموا فيها حاميتين . واستطاع عمارة دونقس أن يقنع العثمانيين بأنه ملك مسلم وسكان بلاده عرب مسلمون ولا مبرر لأن يخشاهم العثمانيون .

ويخلف عمارة دونقس فى دولة الفونج ثلاثة ملوك لا يذكر لأحدهم عمل مهم ويخلفهم الملك دكين ودنايل سنة ٩٧٦ هـ / ١٥٦٩ م وفيه يقول كاتب الشونة : « هو من أفضر ملوك الفونج ، رتب الدواوين أحسن ترتيب وجعل لها قوانين مضبوطة لا يتعدها أحد ، وجعل لكل جهة من جهات مملكته رئيسا ( حاكما ) معلوما وقتن لمن عادته الجلوس بحضرته رتبا : الأعلى فالأعلى فى جلوسهم أمامه ، ومازال يُعنى بتمهيد دولته إلى أن توفاه الله تعالى سنة ٩٨٥ هـ . ويتعاقب بعده ملوك لا أهمية لهم ويخلفهم عدلان وداى سنة ١٠١٩ هـ / ١٦١١ م ويذكر كاتب الشونة أنه حدث فى عهده نهضة تعليمية وكان للشيخ عجيب رئيس عرب القواسمة والعبدلاب دور مهم فى تلك النهضة . ويبدو أنه ثار على عدلان وداى ، ونشبت معركة بين جيشه وجيش الفونج مات فيها وانهزم جيشه وفرت أسرته من عاصمته « قرى » إلى دنقله ، وتوسط الشيخ الصالح إدريس ود الأرياب عند عدلان وداى فأقام العجيل أكبر أبناء الشيخ عجيب مكان أبيه شيخا أو أميرا على « قرى » وعادت إليها أسرته .

وفى نفس السنة صمم الفونج على خلع ملكهم عدلان ولولا مكانه الملك بادى سيد القوم

وخلفه الملك رياط وفي عهده حدثت حرب مع الحبشة سنة ١٠٢٧ هـ/١٧١٨ م اكدت فيها الحبشة بما استولت عليه من بعض الغنائم ، وولى بعده ابنه بادى أبو دقن سنة ١٠٥٤ هـ/١٧٤٥ م ويقول عنه كاتب الشونة : « هو من ذوى الشجاعة والكرم والمهم العالية ، وقد غزا النيل الأبيض وفتك بسكانه المعروفين بالشلوك وغزا جبال تغلى غربى النيل الأبيض بنحو مرحلتين ، وصالح ملكها على جزية سنوية جعلته تابعا لمملكة الفونج . وبنى بعاصمته سنار جامعا وقصرا لدواوين الحكومة ، وكان مكرما لأهل العلم ، وكان يرسل بهدايا إلى علماء الأزهر ونظمت فيه عدة مدائح وخاصة من الشيخ عمر المغربى الأزهرى وفيه يقول من قصيدة طويلة :

هو الملك المنصورُ بادى الذى له مدائحُ قد جلتُ عن العَدِّ والحَصْرِ  
 ودام حكمه نحو خمس وثلاثين سنة ، وخلفه ابن أخيه أونسة ود ناصر ، وفي عهده حدثت مجاعة ، وتم لقبائل الشايقية التى كانت تنزل فى شمالى السودان بمنطقة حلفا استقلالها عن العبدلاب وبالتالى عن سنار ، وكانوا أهل بسالة وشجاعة ، وكانت تقدمهم فى الحرب امرأة فاقت فى الفروسية وفنون الحرب نظراءها من الرجال وكانت تسمى عديلة ، وهى التى حرضت ابنها عثمان على خلع طاعة ودعجيب أمير العبدلاب ، ونشبت بينهما الحرب وانتصر عثمان ومنح ودعجيب الشايقية استقلالها . ونشطت فرنسا فى إرسال بعثات تبشيرية إلى الحبشة تريد أن تخرجها من مذهبها اليعقوبى القبطى فى المسيحية إلى مذهبها الكاثوليكي وباءت جميعا بالإخفاق الذريع لا فى الحبشة وحدها بل أيضا بين مسيحيى سنار . وتتطور الظروف فى دولة الفونج ، ويستولى على صولجان الملك فيها بادى أبو شلوخ سنة ١١٣٧ هـ/١٧٢٤ م وتعود الحبشة إلى الشغب على حدود مملكة سنار ، وفى سنة ١١٥٧ هـ/١٧٤٤ م سار ياسوس إمبراطور الحبشة على رأس جيش متجها نحو مملكة سنار ، وأمر بحرق القرى السودانية وقتل الناس وأخذ يُلهم وأنعامهم ، وعسكر قسم كبير من الجيش الحبشى أمام سنار ولقيه جيشها وهزمه ، وكان الإمبراطور معسكرا مع بقية الجيش بعيدا فلما بلغته الخزيمة أثر السلامة وعاد بجيشه إلى بلاده . ويقول كاتب الشونة فى حديثه عن هذه الحرب ونهايتها : « فرح الملك بادى وأهل سنار ورفوا بذورهم وعملوا الموالد وذبحوا الذبائح وأقاموا ولائم ونشروا الحرير وزينوا المسجد والسوق سبعة أيام وسمع سلطان الروم ( الخليفة العثمانى ) بذلك ففرح بنصرة الإسلام والدين » . ولم يحاول الأحباش بعد ذلك غزو السودان ودولة الفونج . وأخذت سياسة الملك بادى تسوء سوءا شديدا وغير كثيرا من القوانين واستعان بأهل التوبة مفضلا لهم فى الوظائف العليا على الفونج ، وغضب الشعب غضبا شديدا ، غير أنه انتظر نتيجة حملة كردفان سنة ١١٦٠ هـ/١٧٤٧ م ونجحت الحملة وضمت كردفان إلى دولة الفونج ، وقرر الشعب وقادة الجيش خلع بادى وتولية ابنه ناصر ملكا بعده .

وأصبح ملوك الفونج - منذ هذا التاريخ - العوبة في أيدي الوزراء من الهمج ، وكانوا جماعة أو قبيلة واضحا في سنار : وكان منهم الوزير الأول لبادى أبى شلوخ ثم لابنه ناصر وهو الشيخ محمد أبو لكيك ، أما جماعته وهم الهمج فيقال إنهم من الجعلين الذين كانوا ينزلون شمالى قبائل العبدلاب ، ويقال بل هم من أهل النوبة الذين أسكنهم الملك بادى أبو دقن فى قرى حول سنار وجعل منهم جنده وحرسه الخاص . والأصل الذى انحدر منه الشيخ محمد أبو لكيك يرجع إلى جعلى ، ترزج من نساء الأبواب . وقد مكته مجموعة أخواله الأبواب من الاحتفاظ بإدارة الحكم وتدييره . وعزل الملك ناصر وتولى أخوه إسماعيل ، وتوفى الشيخ محمد أبو لكيك وتولى المشيخة بادى ود رجب ، وبدأ التنافس سريعا فى جماعة الهمج ، إذ أخذ غير واحد يستعين بمجموعته أو عشيرته ليستولى على الحكم ، وكثرت الانقسامات والحروب الأهلية فى الدولة إلى أن دخلت جيوش محمد على السودان سنة ١٢٣٦ هـ / ١٨٢٠ م بقيادة ابنه إسماعيل كامل .

#### ٤

### محمد على والسودان - عهد إسماعيل

( أ ) محمد على<sup>(١)</sup> والسودان

ترجع بعض المغريات التى جعلت محمد على يفكر فى فتح السودان إلى ما سمعه عن شبابه من الإخلاص والطاعة وشدة البأس ، فتمنى لو أتيحت لجيشه كتيبه أو كئاب سودانية بدلا ممن فيه من الترك والأرتنوط والألبان . ومن أهم المغريات أن الممالك الذين اضطهدهم فى مصر وأوقع بهم فى مذبح القلعة المشهورة فرّ كثيرون منهم إلى السودان وخشى أن يكونوا دولة هناك تحمل السلاح ضده ، فرأى أن يتعقبهم ويقضى عليهم قبل استفحال أمرهم . فأصدر قرارا إلى محمد بك لاطوغلى بتجهيز الحملة ، فجمع جيشا من المغاربة والأتراك والأرتنوط والألبان وعربان البوادي ، ورُحّل الجيش إلى حلفا وعين محمد على ابنه الثالث إسماعيل كامل قائدا له وعين معه مساعدين من كبار القواد . وسار الجيش فى أرض النوبة ، وطلب إلى قبائل الشايقية تسليم خيولهم وأسلحتهم فأبوا وقالوا إنهم يدفعون ضريبة أو إتاوة فقط ولكن لا يدفعون خيولهم وأسلحتهم التى نشأوا يحملونها . وصمم إسماعيل كامل على حربهم ، وعلى الرغم من بسالتهم لم يستطيعوا الصمود لرصاص المدافع ، فاستسلمت طائفة منهم وطائفة ولّت وجوهها

(١) الرافعى ، وتاريخ السودان القديم والحديث لنوم شقير ، ودائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر مخطوطة كاتب الشونة : تاريخ السلطنة السنارية وإدارة المصرية ، والسودان عبر القرون للدكتور مكى شيبة ، وعصر محمد على لعبد الرحمن

إلى مدينة شندى وفيها سلموا له ، وطمانهم وأخذ فى استمالتهم حتى ارتضوا أن ينضموا إلى جيشه . وكان المماليك قد انسحبوا إلى شندى وأثر عدد منهم التسليم لإسماعيل كامل ، وفرت طائفة منهم إلى كردفان ومنها اتجهوا إلى ليبيا ، ولم يسمع عنهم بعد ذلك خبر . وطائفة اتجهت شرقا نحو الحجاز ، وانقطعت أخبارها . وسلم له الشايقية وحكام دنقلة وبربر وشندى والجعلين . وواصل إسماعيل كامل زحفه حتى نزل فى مقرأم درمان الحالية ، وفيها وفد عليه أمير العبدلاب وسلم له فى أوائل رمضان سنة ١٢٣٦هـ/١٨٢١م وهرب منه بعض الناس ولقيه آخرون أعطاهم الأمان لأنفسهم وكساهم ، وزحف إلى الجنوب ، وكان يهدى كل من لقيه من الحكام كسوة وسيفا ، ولقيه ملك الفونج فأمنه وكساه ودخل مدينة سنار فى الثانى عشر من رمضان . وبدون ريب كانت دولة سنار دولة عظيمة أدت للإسلام والعروبة خدمات جليلة لمدة ثلاثة قرون وراثها بعض الشعراء .

وكان إسماعيل كامل قائد الجيش وهو فى دنقله قد أعد حملة بقيادة محمد بك الدفتردار لفتح كردفان ولم يقبل حاكمها التسليم ، والتقى بجيش الدفتردار عند مدينة الأبيض ولم تصنع شيئا السيوف والحراب إزاء الأسلحة النارية ، واستسلمت إمارة كردفان . واستقر إسماعيل كامل فى سنار ، وأخذ يرسل بالسرايا وتأتيه بالغنائم والأسرى . وزار إبراهيم باشا أخاه إسماعيل كامل فى سنار ليعده العدة معه لإرسال السودانين إلى أبيه ، وعاد سريعا . وفرض إسماعيل كامل ضرائب فادحة على السودانين فغضبوا غضبا شديدا فاضطر إلى تخفيضها . وأحسن بوخامة مناخ سنار فتنزل واد مندى وبنى بها ثكنات للجيش ومكاتب للحكومة ، وصمم إسماعيل - بعد غيابه عن القاهرة مدة سنتين - أن يعود إليها ، ومر فى عودته بنمر ملك شندى والجعلين ، وطلب منه أن يقدم إليه من الأنعام والنقود ما يبلغ نحو عشرين ألف جنيه ، وهو مبلغ تقصر عنه موارده أو هو مبلغ باهظ ، فلما راجعه قسا عليه ، فصمم نمر على الانتقام وأمر بوضع قصب جاف حول خيمته وأشعله وإسماعيل كامل نائم ، فمات بالاختناق سنة ١٢٣٩ هـ/١٨٢٣ م . وأعقبت ذلك حملات انتقامية للدفتردار قتل فيها آلاف غير من أُميروا . وعين محمد على لإدارة السودان عثمان بك ونزل فى مكان الخرطوم الآن واتبع سياسة التنكيل بالسودانيين وماذنبهم ؟ ولكنه كان قصير النظر مثل الدفتردار ، وتوفى سريعا . وعين محمد على خورشيد أغا حاكما لإقليم سنار ، وكان عليه أن يرجع الثقة للحكومة وأن يعيد إلى السودان من فر إلى الحيشة ملتجئا ونجح فى تحقيق الغايتين ، واتبع فى سنار سياسة عمرانية رشيدة ، ورأى أن تبنى الزراعة فى السودان على الرى المستديم مثل مصر وطلب عمالا منها يجيدون صناعة السواقى وطلب عمالا آخريين لحفر الترغ ، واستحضر من مصر أغراس بعض الأشجار المثمرة وشجع زراعة النيلة وقصب السكر ، وطلب كباشا من مصر لتحسين سلالة الضأن فى السودان . ووفى خورشيد إلى رتبة الميرمران ومنح لقب باشا . وبعد اثنى عشر عاما من حكمه

عاد إلى مصر وحزن السودانيون لعودته إذ عرفوا فيه الحاكم العادل الذى أنساهم سنين الدفتردار الدموية ويقول كاتب الشونة عن عودته : « تجهز بكامل ما لديه ونزل بالمراكب فصعب ذلك على الأهالى جميعا وصاروا عند وداعه يتباكون بالدموع » . وخلفه أحمد باشا أبو ودان وكان عهده استمرارا لعهد خورشيد وفيه يقول كاتب الشونة : « ضبط الحكومة أشد ضبط من غير إهمال ولا تفريط ، وأبطل ما كان من تعدى العساكر على الفلاحين فى تسخيرهم فى الأشغال وتسخير بهائمهم .. وبذلك ارتاحت الأهالى وزادت العمارة وكثر الخير وخصبت الأراضى ورخصت الأسعار حتى صار أردب الذرة بخمسة قروش وصارت أيامه أحسن من أيام سلفه ، وإن كانت أيام سلفه أيضا حسنة فى نفسها » . وتوفى أحمد باشا أبو ودان ، فرأى محمد على تقسيم السودان إلى مديريات وترجع كل مديرية رأساً إلى مصر ، ويتعاون المديرون فى المصالح المشتركة ، وطلب إلى الحكومة العثمانية أن تضم مينائى مصوع وسواكن إلى السودان وأجابته إلى طلبه . ومنذ ولاية ابنه إسماعيل كامل كانت ترسل له جماعات ممن يؤسرون من السودانين فى الجبال لضمها إلى الجيش . وتبين خطأ هذه السياسة إذ كان كثيرون منهم يموتون فى الطريق أو فى معسكرات مصر . وانتظمت الإدارة منذ ولاية خورشيد بما أخذ به هو ومن جاء بعده من سياسة عمرانية قومية وتحسين الرى والزراعة وزيادة الإنتاج الحيوانى وجلب العمال المهرة من مصر لصناعة السواقي وحفر الترغ .

وخلف عباس الأول بن طوسون جده محمد على سنة ١٨٤٨ وفى عهده أنشئت القنصليات فى الخرطوم ، ومع أنه أغلق فى مصر بعض المدارس أمر بفتح مدرسة كبيرة فى السودان وعين رفاة الطهطاوى ناظرا لها . غير أن سعيدا حين خلفه أغلق هذه المدرسة ، وفى عهده أبطلت تجارة الرقيق السودانى نهائيا وزار السودان وأمر بإصلاح الأداة الحكومية فى جمع الضرائب وخففها ، ورأى أن تبقى كائب الجند فى السودان وأن لا تسلط على الناس وأن يقف جمعها للضرائب ، وأمر بتنظيم المدن والشوارع وتشجيع السودانين على إنشاء الحدائق فى منازلهم .

#### (ب) عهد إسماعيل<sup>(١)</sup> ( ١٨٦٣ - ١٨٧٩ م )

كان أول ما عمله إسماعيل تعيين موسى باشا حمدى حكامدارا للسودان وبذلك أعاد للحكم هناك نظام المركزية أيام خورشيد ، وأشرك العنصر السودانى فى الحكم فعين الشيخ أحمد أبو سن كبير قبيلة الشكرية مديرا للخرطوم وسنار وظل فى وظيفته إلى أن توفى بعد عشر سنوات وأظهر قدرة ممتازة برهنت على كفاءة السودانين الإدارية ، وطلبه إسماعيل بمعاملة السكان بالعدل والعمل على ازدياد العمران فى السودان وتوسيع نطاق تجارته ، وأنشئت فى السودان

(١) انظر فى السودان لعهد إسماعيل كتاب السودان عبر القرون لمكى شيكة وعصر إسماعيل لعبد الرحمن الرفاعى  
وتاريخ السودان القديم والحديث لنعم شقير .

زمن حكمدارية موسى حمدى خمس مدارس فى عواصم المديریات : بربر والخرطوم والأبيض وكسلا ودنقلة . وقد أمدت هذه المدارس النظامية الإدارة السودانية بمجرتها من الكتاب والمحاسبين وعمال التلغراف وأحدثت نهضة فى الثقافة والأدب بعد أن كان العلم مقصورا على خلاوى القرآن ومجالس العلوم الشرعية . وأمر إسماعيل بالإتفاق على المساجد وكتاتيب القرآن وفرض رواتب شهرية لها . وعين إسماعيل جعفر مظهر حكمدارا للسودان وكان على معرفة واسعة بالعلوم الدينية والأدبية فكان يجتمع عنده العلماء والأدباء للحوار والمناقشة وشاع فى أيامه الشغف بالعلم والأدب ، وأخذ بعض الشعراء ينظمون قصائد كانت تنشر فى الوقائع المصرية ، وأمر إسماعيل بالتوسع فى نطاق السودان : فى دارفور وبحر الغزال وخط الاستواء . وتطورت الظروف فى بحر الغزال وعُين الزبير السودانى مديرا له ، وساءت العلاقات بينه وبين الزريقات فحاربهم واتصر عليهم سنة ١٢٩٠ هـ/ ١٨٧٤ م وفرّ مشايخهم إلى سلطان دارفور فنازله الزبير وقتل فى إحدى المعارك ، ودخل الزبير عاصمته : الفاشر سنة ١٢٩٢ هـ/ ١٨٧٦ م وضمت دارفور إلى السودان ، وكان ذلك من الزبير عملا جليلا .

أما خط الأستواء فقد ارتبط مصيره بإنجليزيين أحدهما مكتشف مهم هو صموئيل بيكر مكتشف بحيرة ألبرت الاستوائية ، والثانى ضابط إنجليزى هو غوردون ، وكان صموئيل بيكر زار مصر فى أوائل سنة ١٢٨٠ هـ/ ١٨٦٩ م بمعية ولى عهد المملكة الإنجليزية ، فتعرف عليه إسماعيل واختاره للقيام بحملة على خط الأستواء وضمه لمصر ، وارتضى ذلك صموئيل بيكر وحرّر معه عقد لمدة أربع سنوات براتب سنوى يبلغ نحو عشرة آلاف جنيه . وهى إحدى غلطات إسماعيل الكبرى أن يعهد إلى إنجليزى بفتح منطقة خط الأستواء ظانا أنه سيخدم مضر ، وأسرّ صموئيل بيكر فى نفسه أن يخدم بلاده بجعل منطقة خط الأستواء مستعمرة بريطانية لو استطاع ، ووضع نصيب عينية تآليب السودانين على مصر والمصريين ، وأنفقت الحملة ثمانمائة ألف من الجنيهات ، ولم تتم عملية الفتح والضم كما كان مظلونا ، وكل ما جنته مصر من الحملة طوال أربع سنوات تأسيس ثلاث محطات هناك فى غندوكرو وفاتيكو وفويرا ورفع أعلام مصرية عليها . وانتهى عقد بيكر وعاد إلى بلاده ، وبدلا من أن يعهد إسماعيل إلى مصرى أو سودانى بإتمام الفتح قدم إليه وزيره نوبار ضابطا إنجليزيا تعرف عليه فى السفارة الإنجليزية بالآستانة هو غوردون الذى خدم دولته فى حروب القرم وفى الصين ، فارتضاه إسماعيل ليتم ما بدأه صموئيل بيكر فى منطقة خط الأستواء ، فنجح هناك فى تأسيس مجموعة من المحطات العسكرية ، وكان سياسيا ماكرا فجذب قلوب الناس إليه ، واضطر للدخول فى مناوشات مع أوغندة والبلدان المجاورة ، وأحسّ بالإرهاق فعاد إلى مصر مصمما على عدم العودة إلى السودان ، غير أن إسماعيل أقنعه بإكمال مهمته ، فوعده برجوعه بعد زيارته لبلاده . وكانت مصر استولت على سواكن ومصوع ودخلت كل المنطقة الشرقية فى السودان ،

وفى سنة ١٢٨٧ هـ/ ١٨٧١ م وصل المصريون إلى حدود الحبشة فنشبت حرب بينهم وبين الحبشة وتوفى ملكها يوحنا بعد قليل واستولى المصريون على مرتفعات إرتريا فى سنتى ١٢٩١ هـ/ ١٨٧٥ م و ١٢٩٢ هـ/ ١٨٧٦ م وبذلك اتسعت إمبراطورية إسماعيل من البحر المتوسط إلى منطقة البحيرات فى أعلى النيل : ألبرت وفيكتوريا ومن سواحل البحر الأحمر وسواكن ومصوع وزيلع إلى دارفور شرقى بحيرة تشاد ، وبسطت حمايتها على خليج عدن وبوغاز باب المندب وعلى أوغندة ووصلت حدودها إلى المحيط الهندى ورأس جرفوس عليه . واعترفت إنجلترا بسطان مصر على الصومال . ويعود غوردون ويلقى إسماعيل سنة ١٢٩٣ هـ/ ١٨٧٧ م بحضور وزيره شريف باشا ويحببه إسماعيل إلى ما طلبه من تعيينه حكمداراً عاماً على السودان وأعطاه سلطات لم تعط لحكمدار قبله وينزل السودان ويبدأ بتفقد الشرق ، وفى مصوع جاءه خبر بالتمرد والعصيان فى إقليم دارفور وظل يعالج الأمور هناك فترة طويلة ، وشك فى إخلاص السودانيين وفكر فى الاستعانة بإنجليز وأوروبيين وهى فكرة خاطئة . وجاءه خبر تنازل إسماعيل صديقه عن الحكم وان ابنه « توفيق » خلفه ، فصمم على اعتزال العمل فى السودان ، إذ لن يظل متمتعاً بما أتاح له إسماعيل من سلطات واسعة . ومن المؤكد أن الحكم المصرى للسودان الشقيق أتاح له تقدماً فى العمران وزيادة فى الإنتاج واستغلال الثروة الزراعية والحيوانية وازدهاراً فى التجارة مع تأسيس المدارس للتعليم المدنى ونشر المعارف العلمية الحديثة .

## ٥

### حركة المهدي - خليفته عبد الله التعايشي

#### ( أ ) حركة (١) المهدي

المهدي هو محمد بن عبد الله ولد سنة ١٢٦٠ هـ/ ١٨٤٤ م لأب كان يعمل نجاراً فى بناء السفن بمنطقة دنقلة ، وهاجر فى النيل جنوباً ونزل فى مدينة شندى وتركها إلى قرية شمالى أم درمان ، وتوفى . واحترف إخوة محمد مهنة أبيهم ، أما هو فكان يميل بفطرته نحو الدين ودخل خطوة حفظ فيها القرآن الكريم ، وبعد حفظه له التحق بشيخ أو بشيوخ يتعلم على أيديهم الفقه والتوحيد والنحو ويتلقن التصوف . وكان إخوته بعد وفاة والدهم نزلوا الخرطوم ونزلها معهم ، ولزم شيخاً صوفياً من أتباع الطريقة السمائية وعنه تلقن تلك الطريقة ، وأخذ يميل إلى النسك والعزلة ، واعتزل سنة ١٢٨٦ هـ/ ١٨٧٠ م فى جزيرة أبا فى النيل الأبيض

عهد الاحتلال لعبد الرحمن الرافعى ودائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر فى تلك الحركة كتابى السودان عبر القرون والسودان فى قرن للدكتور مكى شيكة وتاريخ السودان القديم والحديث لنعوم شقير ومصر والسودان فى أوائل

وانصرف فى كهف بها على شاطئ النهر للنسك والعبادة ، واختلف مع شيوخه الصوفى الشيخ محمد شريف إذ وجدته يحتفل فى ختان أحد أبنائه بصور من اللهو لم يَسْتَسِيغُهَا تصوفه ، وبحث عن شيخ آخر من أصحاب طريقتة السمانية جدد عليه العهد . وكانت أسرته تذكر أنها من سلالة الرسول ﷺ فأخذ يكتاب مشايخ الطرق وبعض العلماء سرا بأنه المهدي المنتظر الذى بشر به الرسول ، وأعلن لهم أن الله خصه بذلك لنصرة الإسلام وأن النصر سيلازمه ، وأخذ يريدوه من السودانيين يتكاثرون ويلتفون حوله ، ولما اتسعت دعوته أرسلت إليه الحكومة قوة إلى جزيرة أبا فاستطاع بمن معه من الدراويش أن يقهرها ورأى المهدي أن يخرج من تلك الجزيرة لأنها مكشوفة ولا تساعد على التحصن ضد القوة الكبيرة التى سترسلها الحكومة واتجه إلى منطقة تقلى فى كردفان ونزل فى جبل قدير واستقر به ، ووجه إليه مدير فاشودة قوة لقتاله وقضى عليها ، وعقب هذه الهزيمة لقوات الحكومة طلب رءوف باشا حاكم السودان إمدادات عسكرية من مصر وكان العرايون يسيطرون على الوزارة ، فرأوا إرسال عبد القادر باشا حلمى ، وقبل وصوله تألف جيش بقيادة يوسف باشا الشلالى المنازلة المهدي سنة ١٢٩٩ هـ / ١٨٨٢ م فى مستقره بجبل قدير ، وهزم هذا الجيش مثل الحملتين السابقتين له ، وأكسبه هذا النصر أنصارا كثيرين ، وثار كثيرون معه فى الجزيرة ولكن الحكومة أخذت ثوراتهم وأعاد إلى الجزيرة عبد القادر باشا حلمى الهدوء . وفى سنة ١٣٠٠ هـ / ١٨٨٣ م هاجم مدينة الأبيض واستولى عليها واتخذها مقرا له ، وجاءه مریدون كثيرون من أنحاء السودان يريدون رؤية « ولى الله ».

وكان الإنجليز قد احتلوا مصر فأرسلت حكومة الاحتلال عشرة آلاف جندي بقيادة هكس باشا الإنجليزي وهاجمت المهدي فى الأبيض وأبيدت إبادة تامة ، وغنم الأنصار أتباع المهدي غنائم كثيرة ، وأخذت الوفود تفد من جميع أنحاء السودان للبايعه المهدي وأخذ النساء فى الأفراح وفى أعمالهن من احتطاب وغيره يتغنين بالمهدي ومناقبه ، واضطرت الحكومتان المصرية والإنجليزية ورأى الإنجليز جلاء المصريين عن الخرطوم . وفى ديسمبر سنة ١٨٨٣ للميلاد استسلم للمهدي الضابط النمساوى سلاتين باشا حاكم دارفور باسم الحكومة المصرية بعد أن ظل ينازل أتباعه سنة كاملة دون جدوى . وعادت إنجلترا للضغط على مصر بالجلاء عن السودان وأصر شريف باشا على الاحتفاظ بالسودان ، واستقال فى أوائل يناير سنة ١٨٨٤ وخلفه نوبار باشا ، ورأت الحكومة فى إنجلترا أن غوردون هو الذى يمكنه إنقاذ الموقف وإجلاء الجنود المصريين عن السودان ، فقبل المهمة ظانا أنه يتمتع بشخصية شعبية فى السودان ونسى أنه أغضب كثيرين منهم لمكافحته تجارة الرقيق ، ولم يكن يتصور مدى الحماسة الدينية التى أشعلها المهدي فى نفوس السودانيين ، ووصل الخرطوم فى فبراير سنة ١٨٨٤ وأرسل توا إلى المهدي خطابا يعينه فيه ملكا على كردفان وأعلن فيه أنه يبيح تجارة الرقيق ، وأجابه

المهدى طالبا منه الاستسلام والدخول فى الإسلام بينما كان هو يفكر فى منح السودان استقلالا ذاتيا تحت نفوذ الحكم الإنجليزى ، وبدا أنه من غير الممكن الاتفاق بين الرجلين ، ونشبت مناوشات فى الشرق عطلت الطريق إلى ميناء سواكن على البحر الأحمر وأرسلت إنجلترا حملة بقيادة جراهام لم يكتب لها النجاح ، وسقطت مدينة بربر فى أيدي الأنصار أو المهديين ، وأرسلت إنجلترا حملة بقيادة ولسلى وتجمعت قوة مصرية إنجليزية فى أسوان وحلقت وأخذت طريقها فى النيل وهزمت بعض قوات المهدي فى المراكز الأمامية ، وأخذ المهدي يعد جيشه للاستيلاء على الخرطوم ، وشاعره الشيخ محمد عمر البنا ينشده قصيدته :

الحربُ صبرٌ واللقاءُ ثباتُ      والموتُ فى شأنِ الإلهِ حياةُ

وتجمع أتباعه جنوبى طابية أم درمان فى أواخر أكتوبر سنة ١٨٨٤ للميلاد ولم يسرع المهدي فى فتح الخرطوم ورأى حصارها حتى تستسلم حقنا للدماء . وبلغ المهدي أن الحملة المصرية الإنجليزية وصلت المتمة فأمر بالهجوم على الخرطوم فى السادس والعشرين من يناير قبل وصولها ، ودخلها الأنصار من ثغرة فى طرف الاستحكامات على النيل الأبيض وفتكروا بالحامية ، وقتل غوردون فى قصره . ودان للمهدى السودان بجميع أرجائه ، وانتقل بمعسكره إلى أم درمان وأذعنت له دنقلة وأخذت الحاميات المصرية تستسلم وأعلن الإنجليز إخلاء السودان من جنودهم . وما وافى اليوم الرابع من رمضان سنة ١٣٠٢ هـ/ الخامس عشر من يونية سنة ١٨٨٥ م حتى أصابت المهدي حمى التيفوس ولم تمهله إذ توفى بعد أسبوع . وأثرت له تعاليم من شأنها أن تجعل لدعوته أسسا واضحة ستحدث عنها فى الفصل المقبل وأثرت عنه بعض مواظ مثل قوله : « إذا دخلتم فى الصلاة فادخلوها بالحضور والخشوع والخضوع والتذلل والابتهاال والانكسار واتسكاب الدموع إن استطعتم مع توجه القلب إلى الله وقول لا عيش إلا فى دارك ولا نعيم إلا فى لقاءك » .

(ب) عبد الله التعايشى<sup>(١)</sup> خليفة المهدي

استخلف المهدي - وهو محتضر - عبد الله التعايشى يده المنى فى دعوته ، ونقل عاصمته إلى أم درمان : قلعة الخرطوم على الضفة اليسرى ، وكان قد هاجر إلى المهدي مبكرا وهو لا يزال فى جزيرة أبا وبايه ، وأخذ المهدي يعتمد عليه فى الإدارة والتنفيذ ، فطبيعى أن يعهد إليه بخلافته ، وكان عماده على أهل الغرب وخاصة على قبيلته البقارة الذين نقلهم إلى أم درمان ، ومنهم ومن الجعليين نظم قوته العسكرية . وجعل فى أول الأمر شؤون الحكم والإدارة فى أيدي أسرة المهدي وسُموا الأشراف ، وندب التعايشى ستة عشر قاضيا للحكم بين الناس

(١) وتاريخ السودان القديم والحديث لنوم شقير ومصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال لعبد الرحمن الرافعى .

(١) انظر فى التعايشى وخلافته للمهدى كتاب السودان عبر القرون والسودان فى قرن للدكتور مكى شيكة

بموجب الكتاب والسنة ، وقسم السودان إلى عمالات أو أقاليم ، وجعل على كل عمالة أو إقليم حاكما ، يسيطر على الجيش والإدارة ومع كل حاكم عدد من الموظفين يساعده في أعماله الإدارية ، واستحالت العاصمة أم درمان من معسكر إلى مدينة كبيرة .

وكانت مصر قد استردت حاميها من ميناء مصوع فاتحتها الإيطاليون واحتلوا أيضا إريتريا سنة ١٣٠٢ هـ/١٨٨٥ م وأسرع التعايشي وعين على مدينة القلابات عاملا ناوش الأحباش وقتل في إحدى المعارك ، ورسل إليها قائده أبا عنجة على رأس جيش كبير يتألف من نحو ستين ألف جندي لقتال الحبشة ، ولقيه جيش حبشى بقيادة الرأس عدار ومُنَى الأحباش بهزيمة قاصمة ، وتقدم المهديون إلى قندر ( غوندار ) عاصمة الحبشة حينذاك وأحرقوها . ومنذ سنة ١٣٠٣ هـ/١٨٨٦ م أصبح بحر الغزال دون حاكم يشرف على شتونه ، وبالمثل مديرية خط الاستواء وكانت سقطت في أيدي أتباع المهدي سنة ١٣٠٥ هـ/١٨٨٨ م وضمها الإنجليز إلى مستعمرتهم أوغنده . وصمم يوحنا إمبرطور الحبشة سنة ١٨٨٩ للميلاد على أن يغسل عن جيشه عار هزيمة سنة ١٨٨٦ فحشد جيشه جميعه وتقدم به إلى القلابات لحرب المهديين أو الأنصار ، والتفوا به ودارت الدوائر على جيشه وجرح في المعركة جرحا مميتا وانسحب جيشه ووراء الأنصار يقتلون ويأسرون ويستولون على غنائم لا تحصى من العبيد والجوارى والأسلحة والخيول وتاج الإمبراطور نفسه ، وهو نصر رفع الروح الحربية والمعنوية في الأنصار إلى الذروة . وصمم التعايشي على غزو مصر وإنقاذها من الاحتلال الإنجليزي وأعد ذلك في نفس السنة جيشا بقيادة عبد الرحمن النجومي ، وهو من الجعليين ، وسار إلى الشمال متجها إلى أسوان ومصر ولكن حامية وادى حلفا أنزلت بجيشه خسائر فادحة ، وزادتها فداحة وجسامة معركة توشكى بعدها بحيث قضى على الجيش السودانى قضاء نهائيا . وفى السنة نفسها انتشرت في السودان مجاعة كبيرة ، وكان التعايشي محاطا بالأعداء من كل جانب فلم يستطع تموين البلاد من الخارج . وفى سنة ١٣٠٧ هـ/١٨٩٠ م أخضع التعايشي قبائل الشلوك أشجع القبائل السودانية الزنجية في الجنوب ودخلت عاصمتها فاشودة في طاعته ، وكان ذلك تعويضا له عن خسائره في الشمال وفى المجاعة . واستطاعت قوة مصرية فى سنة ١٣٠٨ هـ/١٨٩١ م أن تهزم عثمان دقنة قائد التعايشي بالقرب من مدينة طوكر جنوبى سواكن واستردتها . وفى سنة ١٣١١ هـ/١٨٩٤ م استولى الإيطاليون على مدينة كسلا السودانية بالقرب من حدود إريتريا . ونشبت حرب بين إيطاليا مالكة مصوع وكسلا وبين الحبشة فى عهد إمبراطورها الجديد منليك سنة ١٨٩٥ للميلاد وأنزل الأحباش بالإيطاليين هزيمة ساحقة فى غرة مارس سنة ١٨٩٦ عند مدينة عدوة ، وبذلك قضى على ما كان يتهدد أتباع التعايشي من خطر الطليان . غير أن خطرا أعظم أخذ يبدو فى الأفق ، فقد رؤى إنشاء خط حديدى من وادى حلفا إلى مدينة أبى حمد بين الشلالين الرابع والخامس يمكن استغلاله فى نقل الجيوش سنة

١٣١٣ هـ/ ١٨٩٦ م وصدرت الأوامر إلى سردار الجيش المصرى أو بعبارة أخرى قائده العام كشنر لإعداد جيش لفتح السودان ، ومرّ الجيش بوادى حلفا ، واسترجع مديرية دنقلة . واستراح الجيش ثم وصل إلى أبى حمد فى أغسطس سنة ١٨٩٧ للميلاد ، وفى هذه السنة استولى الجيش المصرى على كسلا ورفع هناك العلم المصرى ، وتقدم كشنر بالجيش وانتصر فى معركة عند عطبرة فى أبريل سنة ١٨٩٨ للميلاد ، ومضى فى زحفه حتى أم درمان ونشبت معركة حامية الوطيس فى شهر سبتمبر دارت فيها الدوائر على الأنصار . واتجه التعايشى إلى الغرب يريد أن يحمى به ، وظل أشهراً يعدّ العدة للقاء كشنر ثانية ورفع كشنر العلمين المصرى والإنجليزى على سراى الحكم فى الخرطوم ودارت موقعة بين التعايشى وبين بعض متعبيه من جند كشنر فى نوفمبر سنة ١٨٩٨ وتوفى . وبموته دانت البلاد للجيش الفاتح .

٦

### الحكم<sup>(١)</sup> الثائى المصرى الإنجليزى فى السودان

رأينا كشنر بمجرد دخوله الخرطوم يرفع على سراى الحكم العلمين المصرى والإنجليزى ، وكان كرومر المندوب السامى البريطانى قد استطاع أن يقنع نوبار باشا فى يناير سنة ١٨٩٩ للميلاد بتوقيعه على وثيقة الحكم الثائى المصرى الإنجليزى للسودان ، وعينت الوثيقة خط العرض ٢٢° شمالا حداً فاصلاً بين مصر والسودان ، وأن يرفع العلمان المصرى والإنجليزى على جميع دور الحكومة وأن تكون الإدارتان العسكرية والمدنية بيد موظف ترشحه الحكومة البريطانية ويعينه خديوى مصر ، ويلقب بحاكم عموم السودان ولمنشوراته حكم القانون ولا يسمح لتمثيل قنصلى فى السودان إلا بموافقة الحكومة البريطانية ، ولا تمتد سلطة المحاكم المختلطة إلى أى جزء فى السودان . ووضح أن الحاكم العام يكون إنجليزياً وترشحه الحكومة الإنجليزى ، ومُنح سلطات كبيرة تجعله حاكماً مستقلاً . ورأى كرومر أن تكون مناصب المديرين والمفتشين للإنجليز ، أما المصريون فلهم إدارة المراكز والمأموريات . وربما كانت الحسنة الوحيدة فى هذه الاتفاقية أن السودان أعفى من الامتيازات الأجنبية . وعين كشنر أول حاكم عام للسودان وقد جمع من السودانيين تبرعات لإنشاء مدرسة ثانوية تسمى كلية ذكرى غوردون ، وبلغت التبرعات مائة ألف جنيه . وافتتحت المدرسة سنة ١٩٠٣ وأنشئت فيها أقسام متخصصة : قسم للشريعة الإسلامية لتخريج القضاة ، وقسم للمهندسين وقسم للمعلمين ، وظلت مصر تعين السودان مالياً حتى سنة ١٩٥٤ ووُضعت نظم للشئون المالية والشئون الإدارية والتعليم

والسودان أوائل عهد الاحتلال للرافعى ودائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر السودان عبر القرون للدكتور مكى شيكة وتاريخ السودان القديم الحديث لنعم شقير وراجع فى استعادة السودان واتفاقية يناير سنة ١٨٩٩ كتاب مصر

والقضاء والمصالح الحكومية . وترك كشنر السودان في ديسمبر سنة ١٨٩٩ وخلفه وينجت حاكماً عاماً للسودان حتى سنة ١٣٣٤ هـ/١٩١٦ م ، وأنشئ - حسب الاتفاقية الثنائية - مجلس سنة ١٩١٠ باسم مجلس الحاكم العام . وعنى الحكم الثنائي بالمواصلات والبرق ( التلغراف ) ومُدَّت سكة حديد من وادي حلفا إلى الخرطوم وأضيف خط إلى سنار والأبيض وخط من عطبرة إلى سواكن على البحر الأحمر وأنشئ خط ملاحية نهري من الخرطوم إلى بحر الغزال ، ووضعت مشروعات رى كثيرة بعد الدراسة ، منها مشروع الجزيرة المشهور وجرّبت زراعة القطن ونجحت نجاحاً كبيراً ، وأسست مدارس أولية في المدن الكبرى ، وأنشئت ورش صناعية ، وكان يقوم بالتعليم في هذه المدارس معلمون مصريون أكفاء ، وأنشئت مدارس لتخريج المعلمين .

وقامت بعض ثورات محلية في الحرب العظمى وسرعان ما كانت تخدم ، وبالمثل ما حدث من بعض الثورات في جبال النوبة . وتضطرب العلاقة بين على دينار سلطان دارفور والحكومة ويحمل السلاح ضد الحكومة ويتوفى برصاصة طائشة سنة ١٩١٦ وتضم دارفور إلى السودان نهائياً ويصبح تاريخها جزءاً من تاريخ السودان . ومع الثورة المصرية سنة ١٩١٩ نشط الوعي القومي في السودان للمطالبة بحقوقه ثم كان مقتل السير لي ستاك حاكم السودان وسر دار الجيش المصرى سنة ١٣٤٢ هـ/١٩٢٤ م وخرج الجيش المصرى - بضغط الإنجليز - من السودان فاندلعت هناك ثورة وطنية ضخمة تعد - بحق - بدء العصر الحديث في السودان الشقيق .

## الفصل الثاني

### المجتمع السوداني - الثقافة

١

#### المجتمع<sup>(١)</sup> السوداني

رأينا في الفصل الماضي كيف أن الإسلام أخذ ينتشر في السودان وشرقيه تدريجا بفضل القبائل العربية الكثيرة التي نزلت في حوض النيل جنوبي حلفا وفي شرقيه بقبائل البجة واستغرق ذلك قرونا دخل فيها أهل النوبة في الدين الحنيف وقامت في دنقلة سنة ٧١٦ هـ/١٣١٦ م أول دولة إسلامية وأخذت صلة مملكة علوة جنوبي دنقلة بالكنيسة اليعقوبية في الإسكندرية تتضاءل وأخذ أهلها يعتنقون الإسلام ، وكان انتشاره في غربي السودان أسرع بفضل كثرة نزله من قبيلة زواراة البربرية وعرب الشاوية رعاة الشاة وأيضا بفضل تجار البرنو والكانم ، وتكونت سريعا في دارفور وواداي مملكة إسلامية أواخر القرن الخامس الهجري .

وأخذ الإسلام ينتشر تدريجا في مملكة علوة وفي جبال النوبة وعلى شاطئ النيل الأبيض وفي جنوبي السوباط وبحر الغزال ، ولا نصل إلى القرن العاشر الهجري ، حتى يصبح السودان بلدا إسلاميا وإن ظلت به بعض الجيوب المسيحية والوثنية ، وتأسس سنة ٩١٠ هـ/١٥٠٤ م دولة الفونج الإسلامية في مدينة سنار على النيل الأزرق وتنتشر سلطانها على النيل الأبيض وعلى الجزيرة بينه وبين النيل الأزرق وعلى مملكة تقلى في جبال النوبة .

#### ( أ ) نزعة صوفية عامة

عملت دولة الفونج على نهضة دينية واسعة ، وفسحت للتصوف وطرقه في الانتشار بأبحاثها وكان أول من حاول نشره في ديارها الشيخ تاج الدين البهاري البغدادى وكان قد تعرف عليه بعض حجاج السودان في أثناء حجه ، وأقتعه بالذهاب معه إلى سنار ونشر طريقته الصوفية بها ، وكان من أتباع الطريقة القادرية لعبد القادر الجيلاني الحسيني نسبا المتوفى ببغداد

محمد فوزى مصطفى عبد الرحمن وتاريخ السودان القديم والحديث لنعم شقير والتربية في السودان لعبد العزيز عبد المجيد والسودان عبر القرون للدكتور مكى شبكية ومنشورات المهدي .

(١) انظر في المجتمع السوداني كتاب الطبقات لود ضيف الله وتاريخ الثقافة العربية في السودان للدكتور عبد المجيد عابدين وكتاب الثقافة العربية وأثرها في تماسك الوحدة القومية في السودان المعاصر للدكتور

سنة ٥٦١ هـ/١١٦٥ م وله كتابان مطبوعان هما سر الأسرار والغنية لطالبي الحق ، وطريقته إحدى طريقتين صوفيتين سنتين والثانية الطريقة الرفاعية للشيخ أحمد الرفاعي المتوفى سنة ٥٧٨ هـ/١١٨٢ م أشاعتها بغداد في العالم العربي ، ويقول ابن تغرى بردى عن الجيلاني إنه « أحد المشايخ الذين طن ذكرهم في الشرق والغرب » .

ونزل الشيخ تاج الدين البهاري البغدادى مدينة سنار حوالى سنة ٩٥٢ هـ/١٥٤٥ م وأخذ يدعو للطريقة الجيلانية ، وحظيت دعوته بنجاح كبير فى دولة الفونج وبخاصة فى أرض الجزيرة التى أقام بها سبع سنوات ، وجاءه السودانيون من كل مكان لينظمهم فى سلك الطريقة القادرية ، وأخذ العهد على كثيرين من أهمهم محمد الأمين بن عبد الصادق جد الصادق فى إقليم سوكنى بين واد مدنى والقضارف والشيخ عجيب الماتجلك جد العبدلأب وعبد الله دفع الله العركى جد العركيين وبان النقا الضيرير جد اليعقوباب ويقال إن الشيخ البهاري قلده شعار الرياسة بعده فى دولة الفونج . وهؤلاء الأربعة سيطروا على السلطة الروحية وورثوها أبناءهم ، وارتحل الشيخ البهاري إلى تقلى وأدخل فى الطريقة عبد الله الحمال جد الشيخ حمد ولد الترابى مع جماعته . وتفرعت عن هذه الطريقة فى أواخر دولة الفونج الطريقة السمانية على يد الشيخ أحمد الطيب ود البشير المتوفى سنة ١٢٣٩ هـ/١٨٢٣ م . وكل هؤلاء وذرياتهم ظلوا قائمين على الطريقة القادرية ناشرين لها ومسيطرين على السلطة الروحية فى السودان إلى اليوم .

وبجانب الطريقة القادرية الصوفية عرف السودان فى دولة الفونج الطريقة الشاذلية الصوفية ويبدو أن معرفته بهذه الطريقة تسبق زمنيا قيام دولة الفونج . فقد نزله أحد أتباعها المغاربة - وهو حمد أبو دنانة زوج بنت الشيخ محمد بن سليمان الجزولى مؤلف دلائل الخيرات وداعية الطريقة الشاذلية فى المغرب منذ سنة ٨٤٩ هـ/١٤٤٥ م . ومعروف أن أبا الحسن الشاذلى مؤسس هذه الطريقة نزل مصر ودعا إلى طريقته وتبعه خلق كثير ، وتوفى سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م وظلت طريقته إحدى الطرق الصوفية السنية الأساسية فى مصر . ومن أهم دعائها فى السودان أيام الفونج الشيخ خوجلى عبد الرحمن المحسى المتوفى سنة ١١١٥ هـ/١٧٤٣ م واشتهر بعده بالدعوة لها الشيخ حمد المجذوب المتوفى سنة ١١٩٠ هـ/١٧٧٦ م وكان قد زار مصر والحجاز وأسس للشاذلية فرعا فى مدينة الدامر شمالى الخرطوم وسميت طريقته باسم طريقة المجاذيب ، ومعروف أن الطريقة الشاذلية تقوم على التمسك بالكتاب والسنة والشريعة المحمدية بجانب النسك والعبادة وصدق القلب والشعور الباطنى الصوفى ، وهاجم الشاذلى بشدة حياة الخانقاهات والتسول التى كان يعيشها الدراويش الرُّحَل . ويجانب هاتين الطريقتين كان بعض السودانيين يأخذون طريقتهما الصوفية عن حجازيين فى أثناء حجهم أو عن مصريين فى أثناء دراستهم بالأزهر وأحيانا عن بعض أهل تمبكتو كما حدث للشيخ خوجلى عبد الرحمن الشاذلى المذكور

أنفا ، وقد جمع بين التصوف وعلم الكلام والفقه ، أما التصوف فأخذه عن الشيخ أحمد التمبكتاوى نسبة إلى تمبكتو على النيجر الأوسط ، وأخذ علم الكلام عن الشيخ أرباب الخشن ، والفقه على الشيخ الزين بن صغيرون . وكان يلبث الثياب الفاخرة ، وعلى رأسه الطربوش الأحمر ، ويتعمم بالشيثان الفاخرة ، ويتبخر بالعود الهندي ويتعطر ، ويجعل الزباد الحبشى فى لحيته وثيابه ، ويقول إنه يقتدى فى ذلك بشيخ طريقته أبى الحسن الشاذلى إظهارا لنعمة الله ، فقليل له إن القادرية : إنما يلبسون الجب والمرقعات فقال : ثيابى تقول للخلق : أنا غنية عنكم ، وثيابهم تقول لهم أنا مفتقرة إليكم .

وعمت فى زمن دولة الفونج ( ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م - ١٢٣٦ هـ / ١٨٢٠ م ) النزعة الصوفية كل أنحاء السودان ، وبحق ما لاحظته الدكتور عبد العزيز عبد المجيد فى كتابه : « التربية فى السودان » من أن هذه النزعة كانت تعم حينئذ الحياة الدينية فى العالم الإسلامى وإنها « سيطرت على عقائد الناس وتفكيرهم وامتزجت بالدراسات الإسلامية ، وصار من العلماء من يعتقد أن علم الظاهر لا بد له من علم الباطن بل إن منهم من اعتبر أن علم الباطن هو العلم الحقيقى » ومما يدل على ذلك بوضوح ما يذكره ود ضيف الله عن الشيخ عبد الله العركى فإنه بعد أن تفقه على الشيخ عبد الرحمن بن جابر ذهب إلى غابة الهلالية وشرع فى التدريس وذاع صيته ، وقدم فى أيامه الشيخ تاج الدين البهارى فحاول أن يدخله فى طريقته القادرية الصوفية ، فامتنع ، وحين رأى ما لأتباع الشيخ من مكانة تحركت فى نفسه الرغبة فى أن ينضم إلى الطريقة القادرية ، وكان الشيخ البهارى رحل إلى مكة فسافر إليه وأخذ عنه الطريق . ومن ذلك أن نجد الشيخ المسلمى الصغير بعد أن قرأ مختصر خليل فى الفقه المالكى وتفقه فى الدين رأى أن معرفته لا تتكامل إلا إذا دخل فى طريقة صوفية فذهب إلى الشيخ دفع الله العركى وقال له : « علمى ما نفعنى ، أتيتكم راغبا مددكم ، فسلكه فى الطريق وأدخله خلوة سبعة أيام ، وخرج منها « صوفيا » كاملا . ويذكر ود ضيف الله أيضا عن الشيخ أبى القاسم الوديانى أنه تفقه على الشيخ صغيرون ، وسلك طريق الصوفية على الشيخ إدريس . ومن ذلك ما يقوله ود ضيف الله عن الشيخ محمد البنوفرى من أنه رحل إلى مصر ليقراً على علمائها مختصر خليل ، وبعد عودته إلى السودان صحب فى التصوف الشيخ إدريس ود الأرباب . ويكثر ود ضيف الله فى طبقاته من قوله عن هذا الصوفى أو ذاك إنه جمع بين الفقه والتصوف .

ومما رفع من شأن الطرق الصوفية وأصحابها فى نظر أهل السودان وجعلهم يلتفتون حولهم التفافا لم ينله أحد من الفقهاء وعلماء الشريعة الإسلامية أنهم رأوهم لا يعملون حسابا لذوى السلطان ، إذ كانوا لا يأخذون رواتب منهم ، كما رأوهم يتفانون فى خدمة أتباعهم وخاصة فى أيام الضيق والعسر الشديد . ويعرض علينا ود ضيف الله فى كتابه الطبقات صوراً متعددة

توضح مدى ما كان ينهض به الشيخ الصوفى لأتباعه حين تحدث مجاعة كمجاعة نجيع أم لحم سنة ١٠٩٥ هـ/١٦٨٤ م فإن شيوخ الصوفية فتحو حينئذ لأتباعهم خلواتهم وقدموا لهم فيها الطعام ، وكان بعضهم يظل يقدم هذا الطعام حتى فى سنوات الخصب مثل الشيخ ود حسونه ، ويقول عنه ود ضيف الله ، إنه كان يعنى بالفقراء ( أتباع المتصوفة ) فى الخلوات فيذبح لكل خلوة من خلواته شاتين فى كل يوم ، وكان عدد خلواته إحدى عشرة وقيل بل ثلاث عشرة .

ورأى أهل السودان أن هؤلاء الشيوخ لا يهابون ذوى السلطان ، وإذا كان لأحد منهم شيئا عند حاكم طلب إلى شيخه الصوفى أن يقضيه له ويلى طلبه وسرعان ما يقضيه له الحاكم ، ومن ذلك أن الشيخ حمد المجذوب صاحب الطريقة الشاذلية فى مدينة الدامر اشتهر بأنه كثير الشفاعة لأتباعه عند الملوك والسلاطين وكانوا لا يردون له شفاعة . وكان كثير من الحكام يهابون هؤلاء الشيوخ هية شديدة ، وبلغ الشيخ خوجلى من الهيبة فى نفوسهم مبلغا كبيرا ، حتى قيل إن أكابر العلماء والسلاطين إذا جلسوا بحضوره كانوا كالأطفال من هيئته ، لذلك كانوا لا يعصون له ولأمثاله طلبا . ويذكر ود ضيف الله عن الشيخ إدريس أنه دخل سنار مقر الملك للشفاعة فى مصالح أتباعه إحدى وسبعين مرة . ويقول ود ضيف الله عن الشيخ بدر بن سليمان العوضى إن قبائل العرب فى مدينة بربر وغيرها كانت لا ترد له شفاعة وكان له كرم وضيافة للوافدين .

وهذا وجه مهم من وجوه تعلق أهل السودان بالمتصوفة ، إذ كانوا يدافعون عن حقوقهم ويردون الظلم عنهم ويشفعون لهم ويغيثونهم كلما ألمت بهم كارثة ويفتحون خلواتهم لإيواء الضعفاء منهم وإطعامهم . لذلك تعلق أهل السودان بهم وأخذوا يدخلون أفواجا فى دعوة كل شيخ وطريقته وانتهاج ما تأمر به فى العبادة والتقوى . وكان يغلب أن يختار الشيخ قرية يجعلها مركزا لدعوته ويبنى فيها مسجدا وخلواته ، وما يلبث أن يلتف به كثير من الأتباع ، ويأتيه الناس من القرى المجاورة ، كما حدث فى قرية العيلفون جنوبى الخرطوم فقد أسس بها الشيخ إدريس ود الأرباب مركز دعوته الصوفية ، وتوافد عليه الناس من كل فج سوادنى ، وأصبحت بعد قليل بلدة كبيرة متسعة الرقعة أهلة بالسكان ممن جاءوا يأخذون عنه الطريقة القادرية . ومن ذلك ما حدث لقرية الدامر حين اتخذها الشيخ حمد المجذوب مركزا لدعوته الشاذلية ، فقد وفد إليه الناس من دارفور وكردفان وجميع أنحاء السودان ، ليأخذوا عنه تعاليم طريقته . وكثيرا ما يتوقف ود ضيف الله فى كتابه الطبقات ليقول لنا إن هذا الشيخ أو ذاك شدت إليه الرجال وضربت إليه آباط الإبل . ويذكرون عن حلقة الشيخ أرباب الخشن أنها كانت تشتمل على ألف طالب من الفونج إلى البرنو غربا . وأسهم بعض المشايخ فى توسيع دائرة جماعاتهم الصوفية مثل الشيخ عبد الله الحلنقى إذ يذكر ود ضيف الله عنه أنه كان يتنقل بين « أبو حراز »

وإقليم التاكا فى شرقى السودان ، وحظى عند العرب والفونج . وكان الشيخ ابو سرور الفضلى يتخذ مركز دعوته فى الحلفاية شمالى الخرطوم مدرسا العقائد فى خلواته ، ثم ينتقل إلى دارفور فى أقصى الغرب ويدرس فيها لطلابه أو مرديه ثم لا يلبث أن يهاجر إلى دار صليح .

ويذكرون عن الشيخ العبيد أنه كان يتخذ قريتين مركزاً لدعوته ، وفيهما بنى مسجدين وخلواتهما وهما : النخيرة وأم ضبان ، وكان يقيم فى الأولى فصلى الخريف والشتاء ثم ينتقل إلى أم ضبان وظل على هذه الحال إحدى وعشرين سنة . وكان للشيخ عبد الرحمن بن جابر ثلاثة مساجد : مسجد فى دار الشايقية ومسجد فى كورتى ومسجد فى الدفار ، وكان يقرئ فى كل مسجد أربعة شهور . وقد يرحل الشيخ بأهله وبعض مرديه من موطنه إلى موطن آخر لبث دعوته الصوفية فيه ، كما صنع الشيخ محمد بن دفع الله فى رحيله بأهله من أبيض دبرى شمالى الخرطوم إلى غابة رفاعة فى وسط إقليم الجزيرة ، وأقام بين عرب رفاعة سبع عشرة سنة .

#### (ب) المرأة ومكانتها فى التصوف

لم نعرض - حتى الآن - للمرأة السودانية وصلتها بالتصوف ، وكان لها غير قليل من المكانة الروحية والاجتماعية فى عهد الفونج ، ويذكر ود ضيف الله أن فاطمة بنت سالم كانت واسعة الثراء وكان عبيدها تجار الهند والريف . وكان النساء فى غربى السودان يشاركن الرجال فى جميع أحوالهم ماعدا الحروب ، وبالمثل فى قبيلة الرباطاب إذ كانت المرأة فيها تنوب عن الرجل فى التعزية ، وكان لها نفوذ واضح فى حفلات تنصيب الملوك بغربى السودان . ويدل بصفة عامة على ما كان للمرأة من سيادة فى الأسرة استمرار انتظام الانتساب إليها فانها ينتسب إلى خاله يقول المقرزى عن البجة شرقى السودان إنهم يورثون ابن البنت وابن الأخت دون ولد الصلب ، وكان يفضل فى النوبة ابن الأخت على الابن فى وراثة الملك ، وتأثر بهم فى ذلك عرب جهينة حين اختلطوا بهم ، وكان ذلك شائعا فى بعض جهات دارفور وكردفان ، وهو بقية فى السودان من طور سيادة المرأة فى الأسرة إذ كان الرجل فى بدء الحياة الإنسانية معرضا للخطر لقيامه بصيد الحيوانات الوحشية وبال حرب وكانت هى المسئولة عن الأولاد ، وقد أبطل الإسلام نظام الأمومة ودعا إلى الأخذ بنظام الأبوة فى الانتساب والميراث قائلا : ﴿ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله﴾ .

ولعل فى ذلك كله ما يدل على ما كانت تحظى به المرأة فى عهد الفونج من مكانة اجتماعية ، ولذلك كان طبيعيا أن تحضر دروس العلماء وحلقات الشيوخ ، ويدل على عنايتها بذلك عناية كبيرة ما ذكره ود ضيف الله عن حلقة الشيخ حمد ود أمرم من أن النساء اللائى كن يحضرنها وأخذ عليهن العهد وأصبحن من أتباعه كُنَّ أكثر من الرجال أضعافا مضاعفة ، وأكثرهن من

فزاره ، وهي قبائل كثيرة كانت تنتمي إلى جهيته . ويكفي هذا الخير للدلالة على أن المرأة السودانية شاركت بقوة في انتشار التصوف في البلاد ، وكانت تحضر حلقات الذكر الصوفى ، وكثيرا ما كانت تقوم امرأة - كما يقول ود ضيف الله - فنشده والرجال يذكرون الله على إنشادها وصوتها ، والنساء من خلفها وقوف يستمعن إليها وينظرن إلى أزواجهن وأقاربهن ، وقد ينشد رجل والنساء يسمعن إليه مثل الرجال .

### (ج) التصوف والتربية الخلقية والدينية

كان لكل طريقة صوفية « وِرد » يقرؤه أتباعها صباحا ولها مجالس ذكر يجتمع له أتباعها على الأقل ليلة كل أسبوع . ويذكر الرجال الله في صفين متقابلين ومنشد أو منشدة ينشدان أشعارا تزيد الذكر حماسة . وكان الشيخ يأخذ على من يريدون الانتماء إلى طريقته عهدا على أن يقوموا بأداء فرائض الإسلام ونوافله وعبادة الله والتمسك بتعاليم كتابه وسنة رسوله ومراقبته في السر والعلن ومجاهدة النفس ودفعها إلى الفضيلة والعمل على كل خير . وبذلك كان التصوف نوعا من التربية الخلقية المثلى فضلا عن التربية الدينية . وكان بعض الشيوخ حين يأخذ العهد على التابع أو المرید الجديد يفصل له المنهج الذى ينبغى أن يتقيد به ولا يعدل عن أى واجب فيه ، ويعرض ود ضيف الله تفصيلا لمنهج العهد الذى كان يلزم به حمد ود أمريم أتباعه ومريديه يقول :

« كان يأمر كل من أتاها وتاب على يديه أن يصحح توبته بشروطها ، وهى الندم على ما فات من تضييع فرائض الله من مثل الصلاة والصيام والزكاة وغيرها مع الإخلاص لله تعالى فيما يفعل وترك الرياء والزنا والكبر والحسد والغيبة والنميمة والمُعجب ، ولا يسعى بتقديمه فيما لا يحل له ، ولا يسمع بسمعه ما لا يحل له ، وينهاه عن مخالطة الخلق المعتصين وأكل طعامهم وأكل طعام المستغرقين للذم . ويقول إن ذلك هو السنة التى سنها رسول الله ﷺ . وكان يأمر كل من تاب على يديه أن لا يزوج ابنته - أو من تعهد له بزواجها - من فاسق أو آثم كالحلاف بالطلاق والمعتصب وآكل الربا وغير ذلك . ونهى عن مخالطة الرجال مع النساء ، وأمر بغض البصر .. وكان إذا جاءه أحد لتلاوة القرآن يقول له لا تجوز لك قراءته وأنت جاهل بالفرائض وما فرضه الله عليك من أحكام الوضوء والصلاة . وكان يأمر كل من تاب على يديه وعنده مال مغضوب أن يتصدق به ، ويأمره بالصيام حتى يذهب اللحم الذى رتب الحرام ، ويأمر تارك الصلاة والصيام بقضاء جميع ما فاتهما . ويأمر تابعه بمواصلة ذوى الأرحام وأن لا يتكلف للأضياف بل يقدم لهم ما فضل من نفقته ونفقة عياله . وعلى مریده أن يصلى الأوقات الخمسة معه ويشترط ذلك على خدمه وعبيده ونسائه . وكان جيرانه شكر الله وعبد الكافى والفقير محمد ولد كوريب من شدة متابعتهم له إن قال لهم : انقلوا الجبل فإنهم ينقلونه » .

وإنما ذكرنا هذا العهد كاملا لندل على ما أتاح التصوف لأهل السودان من تربية دينية وخلقية قويمية . وحقا لم تكن كل الجهود تشدد هذا التشدد ولكنها على كل حال كانت تلزم مرديها بسلوك ديني قويم فضلا عن الأوراد والأذكار كما كانت تلزمهم بسلوك خلقي واجتماعي سديد في العلاقات والمعاملات . وتسربت على ألسنة بعض شيوخ التصوف بعض ما كان يردده متصوفة بعض البلدان الإسلامية من مثل القطب والأوتاد والنجباء والقباء ، وأيضا عن الولاية وكرامات الأولياء من المتصوفة ، ويحكى ود ضيف الله عن الشيخ إدريس ود الأرباب أنه قال : « درجات الأولياء ثلاثة : كبرى ووسطى وصغرى ، فالصغرى أن يطيروا في الهواء ويمشوا على وجه الماء وينطقوا بالمغيبات ، والوسطى أن يعطيه الله الدرجة الكونية إذا قال للشئ كن فيكون والكبرى درجة القبطانية » . وهى شعوذة ، وقد تكون قولاً نسب إلى الشيخ ولم يقله . ويردد ود ضيف الله فى حديثه عن الصوفية ذكر الملامتية ، وهى فرقة صوفية خراسانية كانت تستر - فى زعمها - بفعل أشياء تغض من تصوفها وتجعل الناس يتلومونها وينكرون عليها ادعاء التصوف » . وهى فرقة ضالة ، ومن رحمة الله بأهل السودان أنه لم يظهر بينهم من اعتنق مبادئ هذه الفرقة سوى محمد المميم الذى زاد فى زواجه بالنساء على المقدار الشرعى المسموح به وهو أربع وليس ذلك فحسب فإنه جمع بين الأختين « وهو لا يعد بذلك من الملامتية إنما يعد خارجا على الإسلام وأحكامه وأوامره ونواهيه . وربما كان ما ذكر عن إسماعيل صاحب الربابة من أنه كان من الملامتية صحيحا . على كل حال لم تشع مبادئ هذه الفرقة فى التصوف السودانى وظل تصوفا سنيا منحرفا عن شعوذات المتصوفين المتأخرين ، وظل يغذى أهل السودان بتربية دينية وخلقية واجتماعية قويمية .

#### ( د ) طرق صوفية جديدة

تأخذ دولة الفونج فى الضعف منذ أواسط القرن الثامن عشر الميلادى ويرى محمد على خديو مصر الاستيلاء على السودان ويرسل إليه حملة سنة ١٢٣٦ هـ / ١٨٢٠ م ويستولى عليه كما مر بنا فى الفصل الماضى ، ويجول الجند قرية الخرطوم إلى مدينة كبيرة وتصبح عاصمة السودان فى العهد العلوى وعرف محمد على مدى ما للطرق الصوفية من سيطرة على الشعب السودانى وحياته ، فشجع الطرق الصوفية بمصر على نزول بعض دعائها فى السودان ، من ذلك تشجيعه أصحاب الطريقة السعدية ، وهى من فروع الطريقة الرفاعية البغدادية الناشئة فى القرن السادس الهجرى كما مر بنا ، وشجع أصحاب الطريقة الرحمانية أو البدوية المنسوبة إلى أحمد البدوى وأصحاب الطريقة البرهانية المنسوبة إلى إبراهيم الدسوقى . واشتهرت بمكة حينئذ طريقة أحمد بن إدريس الفاسى المتوفى سنة ١٨٣٥ وأرسل إلى السودان قبل وفاته أحد أتباعه المسمى محمد عثمان الأميرغنى ، وأخذ ينشر طريقة شيخه فى السودان الشمالى من وادى حلفا

إلى دنقلة ، وتمَّ له ذلك فرأى أن يذهب إلى كردفان ونجحت دعوته هناك . وشاعت في السودان الطريقة السماتية . ويبدو أن دعاة صوفيين مختلفين نزلوا في السودان أثناء القرن التاسع عشر للدعوة إلى طرقهم ، كما يقال إن الطريقة التيجانية دخلت مدينة بربر في السودان على يد داعيتها محمد المختار .

ومن المؤكد أن هذه الطرق الصوفية وما تكون حول كل طريقة وشيخها من جماعات اتسعت لكثير من القبائل عملت على إضعاف العصبيات القبلية وأحلت محلها روابط الطرق الروحية الصوفية التي ربطت بقوة بين أفراد الشعب السوداني من عرب وغير عرب ، ونشرت الإسلام فيما بقي من جيوب وثنية بالسودان في جبال النوبة ، وبدون ريب سادت روح الإخاء والمودة بين أبناء الطريقة الصوفية . وكانت هناك قرى تنتسب إلى شيخ واحد كقرية العيلقون التي كانت تنتسب إلى إدريس ود الأرباب ، وقد نزلنا وسكنها لعهد سودانيون لا يحصون من الشرق والغرب ووادي النيل بل نجد مدينة تدين بطريقة الشاذلية الصوفية هي مدينة الدامر التي دعا فيها الشيخ حمد المجذوب إليها وجاءه مريدوه من دارفور وكردفان وجميع أنحاء السودان وأصبح سكان المدينة يتألفون من هؤلاء المريدين . ومعنى ذلك أن قيام الطرق الصوفية في زمن دولة الفونج وانتشارها في السودان من حينئذ عمل على إضعاف ما كان به من عصبيات قبلية ، وسادته روح صوفية عامة جمعت بين كل أفراد الطريقة الصوفية على البر والتعاون والرحمة والمودة . غير أنه مع مر الزمن أخذت هذه الطرق تتنافس وأخذت كل طريقة تزعم أنها خير من أختها وأنها هي وحدها التي تسير على الصراط المستقيم ، وانتهى ذلك بالطرق الصوفية إلى أن تصبح من عوامل الفرقة والتشتت بعد أن كانت -طويلا - من عوامل الألفة والوحدة .

#### (هـ) دعوة المهدي ومبادئها الستة

لا نصل إلى سنة ١٨٧٠ للميلاد حتى يظهر المهدي محمد بن عبد الله في جزيرة أبا في النيل الأبيض كما مر بنا في الفصل الماضي وأخذ يكتب مشايخ الطرق وبعض العلماء بأنه المهدي المنتظر والتف الناس حوله واتسعت دعوته ، فأرسلت إليه الحكومة قوة فقهرها ، وترك جزيرة أبا ونزل في جبل قدير بمنطقة تقلى ، ووجه إليه مدير فاشودة قوة قفضى عليها كما قضى على جيش بقيادة يوسف الشلالى ، وأتاحت له هذه الانتصارات أنصارا كثيرين ، ولم يلبث أن استولى على مدينة الأبيض سنة ١٣٠٠ هـ/١٨٨٣ م وتعاضم شأنه وكثر أنصاره وجاءوه من كل أنحاء السودان ، وأرسلت حكومة الاحتلال الإنجليزي لمصر قوة بقيادة أحد قوادها فأيدت بإداة تامة ، واستسلم له سلاتين حاكم دارفور في نفس السنة ، وحاصر الخرطوم ودخلتها جنوده في أواخر يناير سنة ١٨٨٥ للميلاد واتخذ قرية أم درمان عاصمة ، ودان له السودان

جميعه ، وهاجر الناس إلى أم درمان من كل الأنحاء لمبايعته وإعلان اعتناق دعوته ، ولم يلبث أن توفي في شهر يونية سنة ١٨٨٥ .

ونستطيع أن نتبين مبادئ دعوته من خلال منشوراته ، ومن أهم المبادئ التي دعا إليها أتباعه ومريديه الزهد في متاع الدنيا وكان ينصّ على ذلك في بيعة كل مبايع له ، إذ يقول في بيعته : « بايعناك على زهد الدنيا وتركها والرضا بما عند الله » ويشرح هذا المبدأ مبينا أن عدم الأخذ به عند الملوك والأغنياء يشغلهم عن الدين والاهتداء بما جاء به الرسل ، يقول : « وأما الملوك والكبراء وأبنائهم فصار شغلهم - عن الإجابة إلى الله والتلقى عن الرسل والمرشدين - بالجاه والمال والعز والثناء وحسن الصيت فلم يتركهم ذلك لأن يتنوروا بنور الحق لأن القلب صار ممتلئا بهذه الفانيات فلا محل فيه لقبول الباقيات ، وصار حرمانهم من الخير فيما يظنون أنه متعة لهم ، وإذا أراد الله بعبده خيرا فرغه من ذلك الخسيس » .

والمبدأ الثاني في دعوة المهدي العمل بالدين والشريعة الحمديدية والخضوع لأوامر الله ونواهيه وأداء فروض الدين ونوافله والإخلاص في عبادته يقول في منشوراته : « لا نعمة إلا نعمة الدين ، ولا كرم إلا كرم التقوى ، ولا حسب إلا لامثال لأمر الله والتواضع حتى يكون الشخص بالنسبة إلى آحاد عباد الله كواحد منهم كما كانت حالة الصحابة .. فإن المؤمنين كاليدن تغسل إحداهما الأخرى » . وهذا المبدأ أهم مبادئ دعوته لأنه كان يريد إقامة مجتمع إسلامي كبير ، ويصرّح بذلك لأتباعه ، بل دائما يكرره كقوله لهم : « إني قد وليت عليكم بولاية الله ورسوله لإقامة الدين ، وجتتكم داعيا إلى الله ومبلغا عنه ما حملته إليكم : اتبعوا آثار من سلف من المهتدين السابقين على نهج سيدنا محمد ﷺ .. وإنما قصدنا منكم المعاونة في تقويم الدين ، وإني - في ذلك - كواحد منكم » . والمهدي - بذلك - كان يريد أن ينشئ مجتمعاً إسلامياً جديداً على أساس قويم من الدين ، وكان ثورته كانت ثورة إصلاح ديني لبناء دولة إسلامية كبرى تعود بالعالم الإسلامي إلى حياته الأولى : حياة التقوى والعبادة الصحيحة والأخوة في الدين التي هي - في رأى المهدي - أقوى من الأخوة في الأبوين . ولم يقيم المهدي في دعوته أى اعتبار لشىء سوى الدين الحنيف ، فلا اعتبار لنزعة قومية ولا لنزعة عنصرية ، ومن أكبر الأدلة على ذلك أنه أرسل إلى الضباط الإنجليز وجنودهم منشورا يقول فيه : « إنكم إذا تدبرتم بعقولكم وتفرستم في قدرة خالفكم .. علمتم أن مخالفته شنيعة ، ولا ينبغي لكم إلا امتثال أمره واجتناب نهيه والهروب منه إليه .. فهياً إلى ذلك فإن أسلمتم فلکم أمان الله ورسوله وأمان العبد لله وتكونوا من ضمن أنصارنا » . فالمدار في دولة المهدي إنما هو على التمسك بالدين ، ولا فرق بين عربى وغير عربى ولا بين سودانى وأوربى . وما يدل على أن الأساس الدينى فى الدعوة كان كل شىء ما يقوله نعوم شقير فى الجزء الثالث من كتابه :

« تاريخ السودان القديم والحديث » . من أن المهدي جعل أتباعه مراتب بحسب تاريخ دخولهم في دعوته الدينية واعتناقهم لها ، فالمرتبة الأولى لأنصاره الذين التفوا حوله قبل إعلانه المهديّة ، وهم أبكاره ، والمرتبة الثانية لأنصاره الذين آزره في جزيرة أبا في النيل الأبيض ، والمرتبة الثالثة لأنصاره الذين هاجروا إليه وهو في جبل قدير بتقلى ، والمرتبة الرابعة لأنصاره الذين هاجروا إليه في الأبيض ، ثم باقى الأنصار وهم أيضا طبقات بحسب أسبقيتهم في اعتناق دعوته .

والمبدأ الثالث فى دعوة المهدي هو الأخذ بالبساطة فى الحياة ومطاعمها ومشاربها وتبذ ما أدخله التيار التركى والأوروبى فى الحياة المادية الحضارية لأهل السودان فى العادات والمآكل والمشرب والملبس والأفراح والمآتم . وهذا المبدأ يتفق فى وضوح مع مبدأ الزهد والتقشف إزاء المتاع الدنيوى ، وقد أراد به أن يحمى البلاد من ترف الحضارات الأجنبية .

والمبدأ الرابع فى دعوة المهدي نبذ أتباعه لجميع الطرق الصوفية المنتشرة فى السودان ، وبذلك حلّ كل الطرق الصوفية ببلاده ولم يعد لها شيوخ ولا أتباع يتمنون إليها ، ولا عاد بينها تنافس مقيت ، كل يزعم أن طريقته هى طريقة الهدى السديدة وأن الطريقة أو الطرق الأخرى ضالة انحرفت عن طريق الرشاد القويم ، وبذلك لم تعد فى السودان طريقة ولا دعوة دينية إلا دعوة المهدي وما وضعه لها من مبادئ .

ومبدأ خامس فى دعوة المهدي هو نبذ كتب النحل الدينية وكتب فقهاء المذاهب الأربعة المشهورين لأبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل وما بها من كثرة المسائل الفرعية ، مما لا يفيد فوائد مباشرة فى فهم أركان العقيدة الإسلامية ، وقد استحال هذه الكتب على مر الزمن إلى مجلدات تلو مجلدات وشروح تلو شروح يغرق المسلم فى لججها وخضمها الزاخر ، ولا يكاد يتبين نور الدين ، إذ حججوا عنه الكتاب والسنة ، وزجوا به فى هذا المحيط الواسع من كتب تعد بالآلاف تتناول مسائل متفرعة لا حدّ لها ولا حصر ، ويقول من الواجب إهمالها ووضع مذهب اجتهادى جديد فى الفقه والعقيدة . ويشعر من يطالع على هذا المبدأ فى دعوة المهدي أنه ربما كان متأثرا فيه بدعوة المهدي ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين فى المغرب والأندلس إلى نبذ كتب المذاهب الفقهية الأربعة الكبرى لما بها من كثرة الفروع والعلل ، ولم يلبث خليفته يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب أن أحرقا أحمالا من هذه الكتب .

ومبدأ سادس هو دعوة المهدي إلى الهجرة إلى المواضع التى اتخذها مراكز لدعوته اقتداء بهجرة الرسول ﷺ وأصحابه ، وسمى أتباعه بالأنصار اقتداء بتسمية الرسول لأهل المدينة بالأنصار ، وحرّم الطرق الصوفية كما أسلفنا وحرّم على أنصاره أن يسموا أنفسهم الدراويش .

ويذكر الدكتور عبد المجيد عابدين طائفة كبيرة من السنن التي سنّها المهدي في المجتمع السوداني ، فمن ذلك إبطال الرتب والألقاب الرسمية وغير الرسمية ، وأقام الحدود الشرعية على شارب الخمر والزاني والسارق ، وأبطل السحر وكتابة الأحجبة والصراخ على الميت ، وخفض قيمة المهر إلى عشرة ريالات وثوبين للبكر وخمسة ريالات وثوبين للثيب ، وجعل وليمة العرس طبقاً من اللبن وآخر من البلح ، ومنع زيارة قبور الأولياء ، ووجّه الناس إلى العناية بكتاب الله والسنة النبوية .

ودان له السودان جميعه في يناير سنة ١٨٨٥ وأعلن الإنجليز إخلاءه ، وقُدّر له أن يتوفى سريعاً في سن الحادية والأربعين بشهر يونية سنة ١٨٨٥ للميلاد فلم يرافق انتصاره الكبير ولا دعوتَه طويلاً ، ولم يكن لخليفته التعايشي علمه فأخذت الدعوة المهديّة تضعف وقاد كشنبر حملة مصرية في أغسطس سنة ١٨٩٧ لفتح السودان واستطاعت فتحه والقضاء على التعايشي سنة ١٨٩٨ وقام في السودان حكم ثنائي مصري إنجليزي ، وعادت الطرق الصوفية إلى نشاطها قبل زمن المهدي بل ربما ازداد بعضها قوة ، وتحول أنصار المهدي إلى طائفة دينية كبيرة تواجه الطرق الصوفية .

## ٢

### الثقافة<sup>(١)</sup>

#### (أ) كتاب - زوايا - مساجد

عرفت السودان مبكرة الكتاب كما عرفته الأقاليم الإسلامية المختلفة في كل قرية ومدينة وتجمع بدوي للمسلمين وقبائلهم التي نزلت السودان على مر العصور ، فكانت الكتابيب تبنى ملحقة بالمساجد أو منفصلة أو يتخذ مسلم داره لتحفيظ القرآن الكريم الذي يعد حفظه أو على الأقل حفظ آيات كثيرة منه فريضة على كل مسلم ، ويتردد ذلك طوال الحقب الإسلامية . وعادة كان ذلك يستغرق من الصبي سبع سنوات أو تقل أو تزيد حسب قدرته على حفظ القرآن جميعه ، وكان يكتب كل يوم ما يمليه عليه الشيخ أو ما يكتبه من مصحف ، وبين يديه محبرة وعود رفيع مدبّب يكتب به واجبه اليومي ، حتى إذا حفظه سمعه منه الشيخ ، وقد يسمع منه جزءاً مما حفظ من القرآن لتثبيته في ذهنه .

عبد الرحمن وتاريخ السودان القديم والحديث لنعوم شقير  
والسودان عبر القرون لمكي شبكة ومناهج الألبان  
المصرية لرفاعة الطهطاوي .

(١) انظر في الثقافة بالسودان طبقات ود ضيف الله  
وكتاب التربية في السودان لعبد العزيز عبد المجيد  
وتاريخ الثقافة العربية في السودان لعبد المجيد عابدين  
والثقافة العربية في السودان المعاصر لمحمد فوزي مصطفى

وبجانب الكتاب كانت هناك خلوات صغرى أشبه بالكتائب ، وقد تكون ملحقة بالمسجد وقد تكون منفردة ، وهى أيضا لتحفيظ القرآن الكريم ، وقد يتخذها بعض المتصوفة للعبادة والنسك ، والأكثر أن تكون كتباً ، وكانت الناشئة فى دارفور تذهب إلى الكتائب والخلوات فى الثلث الأخير من الليل ومعها حطب توقده ، وتأخذ فى قراءة القرآن وكتابه وحفظه على ضوء ناره ، كما يقول عمر التونسى فى الحديث عن دارفور برحلته إلى السودان ، لأن الناشئة هناك كانت تُشغَلُ نهارا برعى الغنم والبقر .

وبعد حفظ الصبى للقرآن الكريم ينتقل إلى حلقات الدراسة بالمسجد أو بالزاوية ، وكانت الزاوية تعنى بجانب العلوم الدينية ، بدراسات التصوف وكتب الصوفية . أما المسجد فقلما يعنى بهذه الدراسات إنما يصب عنائه على علوم الشريعة وعلوم العربية وعلم الكلام والمنطق ، وعرفت السودان المسجد مبكرة ، إذ ينصّ عبدالله بن سعد بن أبى سرح فى معاهدته لأهل النوبة فى عهد الخليفة عثمان على وجود مسجد بديارهم وما يجب عليهم من رعايته وخدمته وإضاءته . وفى القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى بنى العرب القاطنون على النيل الأزرق مسجدا فى سوبا عاصمة علوة : المملكة المسيحية . ولا بد أن مساجد كثيرة بُنيت مع انتشار الإسلام فى السودان وتغلغل القبائل العربية هناك . وكانت فى دارفور مساجد كثيرة ، إذ كان فى كل بلدة مسجد وقد يكون بها جامع ، وكانت الناشئة تتعلم فيه الكتابة وتتلو القرآن وتحفظه ، ولكل مسجد وجامع عالم يشرف على حفظ القرآن . وأصق المسجد والجامع خلوات للطلاب يحفظون فيها القرآن ويتعلمون أحيانا العلوم الشرعية ولكل مسجد وجامع مال من السلطان ينفق عليه وعلى طلابه وعلى عالمه ومدرسيه . والمسجد من قديم بجانب استخدامه لأداء الفرائض والنوافل كان يستخدم لنشر العلوم الدينية وعلوم العربية ، وكان الشيخ يجلس على رأس حلقة ، ويجلس التلاميذ من حوله فيما يشبه نصف دائرة . وليس هناك طريقة واحدة فى التعليم يلتزم بها الشيوخ فقد يملون من الذاكرة والطلاب يقيدون ما يملونه ، وقد يقرأ الشيخ - أو أحد طلابه - فقرة فى كتاب ثم يتناولها بالشرح والتوضيح ، وقد يلتقى على طلابه محاضرة مكتوبة .

#### (ب) حركة علمية نشيطة فى عهد الفونج

تظهر فى السودان حركة علمية نشيطة طوال عهد دولة الفونج ، وقد أُرِّخ لها ود ضيف الله المتوفى سنة ١٢٢٤ هـ / ١٨١٠ م فى كتابه الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان ، وفيه ترجم لأكثر من مائتين وخمسين من أعلام الشريعة والعربية والتصوف ، وذكرناه مرارا وتكرارا فى حديثنا عن المجتمع السودانى وما ساد فيه من نزعة صوفية ، وبالمثل يمدنا بمعلومات كثيرة عن الدراسات الدينية وما نزل

ديار السودان من علماء العالم الإسلامى ومن السوڤانيين الذين درسوا فى الأزهر بالقاهرة وفى مكة والمدينة .

وكانت الطريقة المتبعة لتخريج الطالب إذنً شيخه له برواية ما سمعه منه ، وقد يكتب إجازة له فى نهاية المصنف الذى أذن له بروايته ، وقد يفردها ، وكانت هذه الإجازة تقوم مقام الشهادة النهائية التى يظفر بها الطالب فى عصرنا . ويسوق ود ضيف الله صورة إجازة منحها الشيخ على الأجهورى شيخ الإسلام بالقاهرة للشيخ عبد الرحمن بن إبراهيم السوڤانى كتبها بخطه ، ويقول فيها بعد حمد الله والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم : « قرأ على الشاب الفاضل والنحرير الكامل الشيخ عبد الرحمن بن إبراهيم الكبايى نسبة البربرى بلدا عقيدتى التى ألفتها فى أصول الدين والتصوف وشرحها قراءة جيدة نافعة إن شاء الله ، وحضر قراءتى فى مختصر العلامة الشيخ خليل فى فقه المالكية فى نحو نصف الكتاب المذكور قراءة بحث وتحقيق دلت على نباهته وفقهه بالكتاب المذكور . وقد استخرت الله وأجزته بما ذكر وبجميع ما يجوز لى روايته بشرطه سائلا منه أن لا ينسانى من الدعاء بسعادة الدارين .. وكتب فى آخر ذى الحجة ختام سنة ثلاثين بعد الألف » . وبلى ذلك إمضاء الشيخ على بن محمد المدعو بزى بن عبد الرحمن الأجهورى المالكى .

وكان ملوك الفونج ونوابهم فى الولايات كالشيخ عجيب فى العبدلاب وولاة علوة يغدقون على العلماء . ووثق الملوك العلاقة بينهم وبين علماء الأزهر بما كانوا يرسلون إليهم من هدايا ، واشتهر الملك بادى الأول ( ١٠١٩ هـ / ١٦١١ م - ١٠٢٤ هـ / ١٦١٦ ) بكثرة ما كان يرسله إليهم من هدايا مع سفيره أحمد علوان ، وأهدوه بدورهم قصائد مدح متعددة ، أنشد منها نعم شقير فى الجزء الثانى من كتابه « تاريخ السوڤان القديم والحديث » قصيدة للشيخ عمر المغربى . وكان الشيخ عجيب شديد العناية بالعلماء فى إمارته ، وتشجيعا لطلاب مشيخته وطلاب دولة الفونج والسوڤانيين عامة حبب إليهم أن يرحلوا فى طلب العلم إلى الأزهر ، وبنى لهم فيه رواقا بجانب رواق الشام ورواق المغاربة ، وبنى لهم رواقا آخر فى المدينة لينزلوا فيه ويأخذوا العلم عن الشيوخ هناك .

#### (ج) سوڤانيون أزهريون وعلماء مصريون

تخرج فى الأزهر لعهد دولة الفونج سوڤانيون كثيرون ، ومن أعلامهم الشيخ محمود العركى فى سنار العاصمة ، وكان قد رحل إلى مصر واختلف إلى شيوخ الأزهر وخاصة الشيخ شمس الدين اللقانى إمام المالكية المتوفى بالقاهرة سنة ٩٣٥ وعمل بعد عودته على نشر المذهب المالكى فى دولة الفونج ، ويقول ود ضيف الله إنه اول من نشر علوم الدين فى أنحاء النيل الأبيض إذ لم يجد فيها مدرسة علم ولا قرآن . وكان الرجل يطلق زوجته ويتزوجها غيره فى

نفس اليوم بدون العدة الشرعية ، فأبطل تلك العادة المحرمة ، وحمل الناس على حكم الشريعة وأن تنتظر المطلقة قبل زواجها الثاني حتى توفى عدتها . وأنشأ الخلاوى لحفظ القرآن الكريم وتدریس علوم الدين ، وبذلك أشبهت الخلوة عنده مدرسة ، وكان له ما بين الخرطوم وأبیس الكوة خمس عشرة خلوة أو مدرسة .

ومن تخرج فی الأزهر أولاد جابر الأربعة : إبراهيم وعبد الرحمن وإسماعیل وعبد الرحيم ، درسوا على الشيخ المالکی البنوفری تلميذ عبد الرحمن الأجهورى ، وهو بدوره تلميذ شمس الدين اللقاني ، وكانوا أيضا من أسباب انتشار المذهب المالکی فی السودان ، وخاصة إبراهيم الذى نزل جزيرة ترنج ودرّس فيها مختصر خليل ورسالة ابن أبی زيد القيروانى فى الفقه المالکی ، ويقول ود ضيف الله إنه أول من درّس مختصر خليل ببلاد الفونج وشدّت إليه الرحال ، ومن تلاميذه أربعون صاروا أعلاما ، منهم الشيخ الزين ولد صغيرون . وصار كثير من تلامذته شيوخا للإسلام فى بلدان مختلفة ، ويقول ود ضيف الله : فقهاء البلاد كلها إلى دار صليح تلامذته وتلامذة تلامذته ، ومن تلامذته المشهورين الشيخ أرباب الخشن ، وكان الطلبة فى حلقتة يبلغون - كما يقول ود ضيف الله - ألف طالب وينفا من دار مملكة الفونج إلى دار مملكة برنو على نهر النيجر . ومن تتلمذ للبنوفرى فى الأزهر أستاذ إبراهيم بن جابر المار ذكره الشيخ عبد الرحمن حموتو الخطيب ورفيقه الشيخ محمد سرحان ، ويذكر ود ضيف الله أنه كان يقول « محمد يصلح للتدریس لكونه يسأل عن تحقيق نصوص المتن ، وعبد الرحمن يصلح للفتوى لكونه يسأل عن معانى الشراح ويراجع آراءهم وفتاواهم . ومن تلقى العلم فى الأزهر من أعلام السودانيين الشيخ حمد المجذوب وكان فقيها صوفيا ، ومر بنا أنه نشر الطريقة الشاذلية فى مدينة الدامر ، وظلت أسرته تقوم بعده على الطريقة الشاذلية ودراسة العلوم الدينية .

ومن العلماء السودانيين الذين تخرّجوا فى الأزهر الشيخ عمار بن عبد الحفيظ ، عنى بأن ينهل من حلقات شيوخ العربية الأزهريين ، وعاد إلى السودان وأخذ يدرس لطلابه - كما يقول ود ضيف الله - علوم النحو واللغة والمنطق ، وتتلمذ عليه سودانيون كثيرون كان لهم دور عظيم فى نشر علوم العربية والبلاغة فى أنحاء السودان ، منهم الشيخ عبدالله بن صابون الذى اشتهر ببراعته - كما يقول ود ضيف الله - فى النحو والصرف والمعانى والبيان والبدیع وعلم العروض ، وكان شاعرا ماهرا ، ومثله زميله الشيخ على ولد شاقمى ، وكان مثله شاعرا مجيدا .

وكثيرون من علماء مصر البررة رحلوا إلى السودان لتعليم السودانيين شريعة الإسلام ومن ندب نفسه لهذه المهمة - كما يقول ود ضيف الله - محمد بن على بن قدم الكيماني تلميذ الخطيب الشرينى إمام الشافعية بمصر المتوفى سنة ٩٧٧ هـ / ١٥٧٠ م استوطن مدينة برير إلى

أن توفي بها ، وقد درس عليه شيوخ كثيرون أخذوا عنه علم الفرائض والفقہ الشافعي من مثل الشيخ عبدالله العركي والقاضي دشين الشافعي وإبراهيم بن عبودي الذي اشتهر ببراعته في تدريسه لعلم الفرائض أو الموارث وفيه ألف حاشيته المعروفة باسم الفرضية . ولم يكتب لفقہ المذهب الشافعي أن يعم في السودان ، إنما الذي عم فيه فقہ المذهب المالكي للفقهاء المالكية الذين ذكرناهم ممن تلقوا المذهب عن أئمتهم في مصر ، ولأن نزلاء السودان من الحجاز والكنانم والبرنو وغريهما ومن الليبيين والتونسين والمغاربة في حجهم وتجارتهم كانوا مالكية . فالمذهب المالكي هو الذي شاع وانتشر فقهاؤه بالسودان لعصر دولة الفونج .

ومن كبار فقهاء المالكية المصريين الأزهرين الذين رحلوا إلى السودان في عصر الفونج الشيخ محمد القناوي تلميذ الزرقاني الإمام المالكي الكبير استوطن مدينة بربر بين ديار الشايقية في الشمال ثم جزيرة سنار في الجنوب لأوائل النصف الثاني من القرن العاشر الهجري ، وبنى فيها مسجده ودرّس فيه رسالة ابن أبي زيد الفقيه القيرواني والعقائد ( في التوحيد ) وعلم النحو وسائر العلوم ، وولى القضاء فنهض به في عفة ونزاهة » ومن أحفاده الشيخ محمد إكداوي نزيل مدينة شندی جنوبي مدينتي بربر وعطبره ، وفيها درّس في الفقہ المالكي رسالة ابن أبي زيد القيرواني مثل جده ، ودرّس النحو وعلم الكلام وعلم الأصول والمنطق ، وكان يجتمع في حلقة طلاب كثيرين . ومن فقهاء مصر المالكية هناك الشيخ حامد اللين وكان يشتغل بتدريس رسالة ابن أبي زيد القيرواني في الفقہ المالكي ، كما كان يشتغل بتدريس العقائد وعلم التوحيد ، وهو أول من أحضر شرح الزرقاني على مختصر خليل وبالمثل شرح الشبرخيتي المالكي على متن العشماوية .

ومن كبار العلماء المصريين الذين نزلوا السودان واستوطنوا مدينة بربر فيه الشيخ محمد المصري الذي عنى بدراسة علم التوحيد أو علم الكلام حتى وفاته سنة ١٠٩٥ هـ / ١٦٨٤ م وكان محمد بن يوسف السنوسي الجزائري المتوفى سنة ٨٩٥ هـ / ١٤٩٠ م ألف في علم التوحيد أو الكلام ثلاثة أعمال : العقيدة الكبرى وشرحها والعقيدة الوسطى وشرحها والعقيدة الصغرى وشرحها ، وسيطرت هذه الأعمال في مباحث علم التوحيد أو الكلام على الباحثين منذ وضعها لا في الجزائر وحدها بل في بلاد المغرب ومصر والعالم الإسلامي . وكان الشيخ محمد المصري يدرس علم التوحيد للشباب السوداني من خلال هذه الأعمال ويفيض في شرحها ، ويقول ود ضيف الله إن له كتباً شأنها أن تكتب بماء الذهب ، منها شرح للعقيدة الوسطى للسنوسي ، وشرح للعقيدة الصغرى ، وكان السنوسي قد اختصر الصغرى وسماها أم البراهين فشرحها . وكان الشاعر أحمد بن عبد الله الجزائري في عصر السنوسي ألف في العقيدة قصيدة فشرحها وشاعت باسم الجزائرية ، ونجد محمداً المصري يشرحها أيضاً - كما يقول ود ضيف الله -

ويشرح الأجرومية فى النحو . وتلميذه الشيخ مكى النحوى الرباطى شرحان على السنوسية : كبير وصغير .

وما حدث بين الطلاب السودانين وانتظامهم فى الأزهر للتعليم وانتداب بعض خريجى الأزهر من المصريين أنفسهم لنشر الثقافة الدينية فى ربوع السودان حدث ما يماثله أو يقرب منه بين السودان والحجاز ، فقد كان للسودانيين رواق فى المدينة تنفق الدولة على من ينزل فيه للأخذ عن الشيوخ هناك ، ومن نزله من السودان الشيخ محمد بن عدلان الذى تلمذ للشيخ عبدالله المغربى هناك ، وعاد إلى أرض الجزيرة فى السودان ، ودرّس للناس علم الكلام من خلال كتب السنوسى التى ذكرناها آنفاً ، ويقول ود ضيف الله إن مدار علم الكلام فى دار الجزيرة أو إقليمها على طلبته وتلامذة طلبته . ويذكر ود ضيف الله عن شيخ سودانى يسمى عمار بن شايقى أنه قرأ فى مكة علوم العربية . ويلم ود ضيف الله بأسماء علماء اليمن الذين نزلوا فى السودان واستوطنوه مثل الفقيهين حمد ولد زروق والشيخ جبارة . ويذكر ود ضيف الله طائفة من علماء المغرب الذين نزلوا فى السودان غير أنه لا يتوقف إزاءهم طويلاً لنعرف ما الذى كانوا يدرّسونه للطلاب فيما عدا التلمسانى ، إذ يقول إنه درّس لطلابه علم الكلام وعلوم القرآن وتجويده وترتيبه . ونظن ظناً أن التلمسانى كان أحد من أشاعوا قراءة ورش المصرى فى دارفور وكردفان ، إذ كانت مصر قد هجرتها من قديم وتمسكت بها البلاد المغربية والأندلس ، وشاعت فيما بعد بالسودان الغربى وبرنو والكانم ، فشيوعها فى السودان إنما هو عن طريق من نزلها من المغاربة أمثال التلمسانى .

وحرى بنا أن نذكر مؤرخين سودانيين مهمين هما ود ضيف الله أو محمد بن ضيف الله الجعلى المتوفى سنة ١٢٢٤ هـ/ ١٨١٠ م صاحب كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان وهو كتاب نفيس ترجم فيه - كما ذكرنا - لنحو مائتين وخمسين صوفياً وعالماً وشاعراً فى عصر دولة الفونج بسنار ، ولأهميته طبع أكثر من مرة ، وعليه اعتمدت فى دراسة الحياة الصوفية والعلمية أيام الفونج وبالمثل الحياة الاجتماعية وخاصة عن المرأة . ويلي هذا المؤرخ وكتابه فى الأهمية كتاب الشيخ أحمد كاتب الشونة - والمراد بالشونة مخزن الغلال - وهو فى تاريخ السلطنة السنارية والإدارة المصرية ويبدو وأنه كان موظفاً فى تلك الإدارة ، فأرّخ لدولة الفونج فى سنار ولإدارة المصرية فى الخرطوم والسودان .

ولعل فى كل ما قدمت ما يدل على أن دولة الفونج أحدثت فى السودان نهضة علمية حقيقية كان عمادها القرآن الكريم وترتيبه وقرآته وتفسيره والحديث النبوى والفقه وما يتصل به من علم الأصول والعربية بعلومها المختلفة . غير أن الدولة ضعفت فى عهدها الأخير مما أتاح لحمد على ضم السودان إلى مصر ، واستحالت الخرطوم إلى مدينة كبيرة ، وأصبحت عاصمة

للبلاد ، وعرف أن السودانيين شعب متدين ويعتقد مناهج كثير من الطرق الصوفية ، فشجع أصحاب الطرق الصوفية بالقاهرة على النزول به ، وأرسل مع الجيش الذى وجّه به إلى السودان ثلاثة من صفوة العلماء ، وهم القاضى محمد الأسيوطى الحنفى والشيخ أحمد البقلى الشافعى والشيخ أجمد السلاوى المالكى « ليكون - كما يقول الدكتور عبد العزيز عبد المجيد - لكل مذهب من المذاهب الفقهية الشائعة شيخ يشرف على شئونه ، وحتى لا يُجبر معتق مذهب ( فقهي ) على أن يلجأ فى الفتاوى والأحكام إلى شيخ من غير مذهبه » . وشجع محمد على علماء الأزهر على الهجرة إلى السودان خدمة للشريعة الإسلامية هناك ، وفتح أبواب الأزهر على مصاريعها للطلاب السودانيين ورُتبت لرواق السنارين جرابية أو بعبارة أخرى خبز لهم ، وأنشئ رواق لأهل دنقلة ورواق لأهل دارفور ورواق لأهل صليح . وفى أواخر عهد محمد على سنة ١٨٤٧ للميلاد أنشئ الجامع العتيق بالخرطوم ، وأريد به أن يكون مثل الأزهر جامعا لأداء فرائض الصلاة ومعهدا دينيا كبيرا يدرّس فيه جِلَّة من العلماء ، ومن ألقى دروسه ومحاضراته الدينية فيه الشيخ إبراهيم عبد الدافع مفتى الديار السودانية والشيخ الأمين الضيرير والشيخ شاعر المفتى والشيخ مصطفى السلاوى والسيد حسين المجدى والشريف المحروقى الشاذلى . ولابد أن نشير إلى أن مصر جعلت المذهب الحنفى المذهب الرسمى للدولة وعلى رأس المحاكم الشرعية قاضيا حنفيا، وعادة يكون مصرياً وظل ذلك فى عهد الفترة المهدوية وبعدها إلى سنة ١٩٤٧ للميلاد.

#### ( د ) التعليم المدنى الحديث وتوقفه

أخذت تنشأ فى عهد محمد على بالسودان مدن جديدة مثل الخرطوم وبعض مستشفيات ومنشآت عصرية ، وهاجر بعض الطلاب السودانيين إلى القاهرة ليلتحق بالمدارس والمعاهد الجديدة . ويذكر رفاعه الطهطاوى فى كتابه مناهج الألباب المصرية أن محمد على اختار طائفة من ناشئتهم أدخلهم فى المدارس المصرية ليتعلموا مبادئ العلوم ، ثم نقلهم إلى مكتب الزراعة ثم إلى مدرسة الألسن ، وكان قصده من ذلك أن يتذوقوا طعم المعارف التمدنية ، حتى إذا عادوا إلى السودان نشروها فى بلادهم . ويذكر الدكتور عبد العزيز عبد المجيد أن بعثة من الطلاب السودانيين تتألف من مائة طالب سافروا إلى مصر والتحقوا بمدرسة الابتدائيين .

وإذا صحَّ ذلك تكون مصر قد أخذت بيد السودان لتنهض فيه سريعا نهضة علمية مثل نهضتها ، ومع ذلك لا يذكر محمد على أنه أقام مدرسة نظامية فى السودان . وأول مدرسة تنشأ فيه أقامها خليفته عباس إذ أنشأ فيه مدرسة ابتدائية فى الخرطوم وجعل ناظرها رفاعه رافع الطهطاوى ، ونراه فى كتابه مناهج الألباب المصرية يشيد بالسودانيين وملكاتهم الخصبة وحسن استعدادهم للتمدن وللعلم والتعلم ، يقول :

« إن للسودانيين قابلية للتمدن الحقيقى لدقة أذهانهم ، فإن أكثرهم قبائل عربية ، يدل على

ذلك اشتغالهم بما ألفوه من العلوم الشرعية عن رغبة واجتهاد ، ولهم مآثر عظيمة في حسن التعلم والتعليم حتى إن البلدة إذا كان بها عالم شهير يرحل إليه من البلاد المجاورة من طلبة العلم العدد الكثير والجم الغفير ، فيعيّنه أهل بلده على ذلك بتوزيع الطلبة على البيوت بحسب الاستطاعة ، فكل واحد من الأهالي يخصه واحد أو اثنان ويقومون بشؤونهم مدة التعلم والتعليم . ويبدو أن هذه الطريقة كانت قديمة منذ عهد دولة الفونج .

وروى سعيد قصير النظر بعد عباس فأغلق المدرسة ، وتولى بعده إسماعيل سنة ١٢٧٩ هـ/ ١٨٦٣ م فعين موسى باشا حمدي حكامدارا للسودان وأمره بإنشاء خمس مدارس في عواصم المديرية : الخرطوم وبربر والأبيض وكسلا ودنقلا ، وفتحت كل مدرسة أبوابها لاستقبال مائة تلميذ كى يحصلوا - كما يقول الدكتور عبد العزيز عبد المجيد - العلوم والفنون النافعة ، وأنشئت مدرسة سادسة في سواكن . وأخذت - بعد ذلك - بعض الإرساليات التبشيرية تنشئ مدارس لها في الخرطوم . وكان لهذه المدارس جميعا أثر واسع في نشر الثقافة الحديثة بالسودان ، إذ كانت تتأثر بالحضارة الغربية والأفكار الأوربية .

وليس كل ما بين هذا التعليم الحديث في السودان وبين التعليم القديم في الخلوات والزوايا والمساجد من فروق تأثره بما في الغرب من حضارة وأفكار فإنه قام على مناهج محددة في كل سنة لكل علم ، وعلى مقررات واضحة في كل مادة مع العناية بتعلم لغة أجنبية ، بخلاف التعليم القديم ، فليس فيه مناهج محددة وليس فيه انتقال من صف إلى صف ، مما يقتضى تدرج التعليم ، بحيث يكون لكل علم في كل سنة مادة علمية تتلاءم مع سن الناشئ من الوجهة التربوية السديدة .

وعين إسماعيل جعفر مظهر بعد موسى حمدي حكامدارا سنة ١٨٧٣ ، وكان مثقفا ثقافة واسعة بالعلوم الدينية والأدبية ، فبث في مسائلها جميعا نشاطا واسعا ، إذ فتح مجالسه للعلماء والأدباء يتحاورون معه ويتحاور بعضهم مع بعض في المسائل العلمية والأدبية ، وأحدث ذلك في الخرطوم والسودان حركة علمية وأدبية خصبة وأخذ بعض الشعراء ينشرون قصائدهم في الوقائع المصرية وكانت حينئذ جريدة مصر الكبرى . وبينما الحركة الثقافية الحديثة تنشط هذا النشاط وبينما المدارس الحديثة تخرّج للإدارة السودانية كل ما تحتاج إليه من الكتاب والمحاسين وعمال التلغراف والموتىء إذا المهدي يقوم بثورته التي مرت بنا فيغلق كل المدارس ، وينهى عن التعلق بأى صورة من صور الحضارة المادية الأوربية والتركية في المآكل والملبس والأفراح والأحزان ، فأتصّاره ينبغى أن يرفضوا كل ما دخل على حياتهم من حضارة الغرب والترك ويعودوا إلى حياة الفطرة الأولى الإسلامية الخالصة . وبذلك ظلت السودان في أيامه منذ سنة

١٨٨١ وأيام خليفته التعايشى منذ سنة ١٨٨٥ حتى نهاية أيامه سنة ١٨٩٨ بعيدة عن كل تعليم حديث أو ثقافة حديثة تشوبها الحضارة الأوربية والتركية .

وبانتهاء العهد المهودى وقيام الحكم الثنائى المصرى الإنجليزى فى السودان عادت الطرق الصوفية إلى نشاطها محاولة بكل ما تستطيع أن تسترد مكائنها التى كانت قد فقدتها . وأصبحت من حينئذ جماعة الأنصار المحتقين للدعوة المهدية طائفة دينية تقف فى مواجهة الطوائف الصوفية . وعاد مع الطوائف الصوفية تعليم الخلوة والمسجد والزاوية والتحق بعض السودانين بالتعليم الدينى فى الأزهر .

#### (هـ) إنشاء معهد دينى وعودة التعليم المدنى الحديث

أنشئ فى جامع أم درمان سنة ١٩٠١ معهد دينى لتدريس العلوم الدينية وعلوم العربية ، وفى سنة ١٩١٢ بُنى له مبنى مستقل بجوار مسجد جديد بأم درمان ، ووُضعت له نظم ومناهج كنظم ومناهج الأزهر ، وجُعل التعليم فيه على ثلاث مراحل وكل مرحلة أربع سنوات ومع كل مرحلة شهادة ، وهى مرحلة أولى ومعها الشهادة الأولية ، ومرحلة وسطى أو ثانوية ومعها الشهادة الأهلية ، ومرحلة عليا ومعها الشهادة العالمية ، مثل الأزهر تماما ، وتفرعت من هذا المعهد معاهد أخرى فى المدن الرئيسية .

وكان لهذا المعهد أثر بعيد فى السودان إذ أخذ يزداد عدد خريجيه من حملة شهادة العالمية ، وعيّن كثير من مدرسين فى وزارة أو مصلحة المعارف وسَدّوا حاجة المدارس الأهلية إلى معلمين للنشطة يدرسون لهم الدين والعربية ، كما سدوا حاجة المديرىات من المعلمين فى معاهدها الإقليمية . ولم يكن فى السودان من المدارس النظامية سنة ١٨٩٩ سوى مدرستين حكوميتين وبعض المدارس القروية ، فعمل الحكم الثنائى المصرى الإنجليزى الجديد على إنشاء مدارس أولية ووسطى فنية ، وتأخر إنشاء مدارس للبنات ، وفى سنة ١٩١١ افتتح الشيخ بابكر البدرى المربى السودانى الفاضل مدرسة للبنات فى منطقة رفاعة بالجزيرة ، وأدخل فيها كريمةاته واقتدت به بعض الأسر ، فأدخلت معهن كريمةتهن ، وأخذت مدارس البنات تزداد ، حتى بلغت فى آخر هذا العصر سنة ١٩٢٣ خمسا . ومنذ أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحاضر أخذت الإرساليات التبشيرية تنشط فى فتح المدارس .

وكان أهم حدث فى التعليم المدنى إنشاء كلية غوردون ، وكان كمشتر أول حاكم عام للسودان جمع من السودانين تبرعات لإنشاء كلية لذكرى غوردون وبلغت - كما أسلفنا - نحو مائة ألف جنيه ، ووضع الحجر الأساسى لها سنة ١٨٩٩ ورؤى - فى أول الأمر - أن لا يتعدى التدريس فيها المرحلة الابتدائية ، وافتتحت فى أكتوبر سنة ١٩٠٣ وتقدم لها مائة

وخمسون تلميذا بينهم من المصريين والشاميين ٥٨ والباقيون سودانيون ، وفي سنة ١٩٠٥ أنشئ بها قسم ثانوى ، مدته أربع سنوات ، مع دراسات خاصة لتخريج المدرسين والمترجمين والمهندسين والقضاة الشرعيين .

وأخذت تنشأ فى الخرطوم والسودان مدارس حكومية وغير حكومية تعنى بالتعليم الحديث وتزويد الطلاب السودانيين بتعلم اللغة الإنجليزية ، ويذكر الدكتور عبد المجيد عابدين عن محمد أحمد محبوب أحد الخريجين الأوائل من كلية غوردون قوله : « لم يكن بد من انتشار آداب اللغة الإنجليزية بين جمهرة المتعلمين من شباب السودان ، وساعد على ذلك نشاط المطبعة الإنجليزية وكثرة إنتاجها فى شتى الفنون والعلوم وفى كثير من أغراض الحياة العامة » .

ولا بد أن نلاحظ أنه بجانب عمل المدارس وكلية غوردون فى نشر الثقافة الحديثة أخذ المعهد الدينى فى أم درمان يتسع بالثقافة الدينية الإسلامية ، وتخرج فيه كثيرون عنوا بالأدب العربى وإنماء دراسته فى السودان . ونشط الفكر السودانى بعمامة وأخذت ترتسم أمامه مثل عليا فى الحياة والاجتماع ، وتأسس بأخرة من هذا العصر سنة ١٩١٨ بأمر درمان ناد للخريجين يمثل الطبقة المثقفة فى السودان ، وأخذ الخطباء يعتلون منابرهم معبرين عن وعى جديد بشئون الأمة السودانية ومصالحها وشئون السياسة والفكر والثقافة ، وأخذ غير واحد ينادى بالإصلاح الاجتماعى والسياسى ، مما أعد لثورة سنة ١٩٢٤ وهى - فى رأينا - تعد بدء العصر الحديث فى السودان .

## الفصل الثالث

### نشاط الشعر والشعراء

١

#### تعرب<sup>(١)</sup> السودان

عرف السودان الجنس العربي قبل الإسلام بعدة قرون عن طريق التبادل التجارى بين الجزيرة العربية والشاطيء الإفريقى ، وَيُظَنُّ أن بعض ملوك حمير استولى على أجزاء من هذا الشاطيء أو من أرض الحبشة ، وتؤكد هجرة المسلمين فى بدء الدعوة الإسلامية من مكة إلى الحبشة أن أهل الحجاز كانوا يعرفون الشاطيء المقابل وسكانه من الحبشة والسودان . ولكن ليس هذا هو التعرب الذى نريده ، فنحن لا نريد معرفتهم بالجنس العربى ومتى بدأت ، إنما نريد تكلمهم بالعربية ومتى أصبحوا يُعَدُّون شعبا عربيا ، ولم يحدث ذلك إلا بعد إسلامهم وبعد هجرة قبائل عربية كثيرة إليهم .

وكان أول احتكاك بين العرب المسلمين وأهل السودان فى عهد الخليفة عثمان إذ أرسل إليه واليه على مصر : عبد الله بن سعد بن أبى سرح سنة ٣١ هـ / ٦٥١ م حملة تغلغت فى مملكة مقرة الشمالية إلى عاصمتها دنقلة وكانت دولة مسيحية أدخلتها مصر قديما فى الدين المسيحى مثل مملكة علوة جنوبيها والحبشة . وانتصر الجيش المصرى انتصارا حاسما وعقدت بين مصر ومقرة معاهدة كان من بنودها صيانة المسجد الذى بناه المسلمون بدنقلة وخدمته وإضاءة السراج فيه ليلا . ونسمع عن عشائر من قبيلة بلى وجهينة نزلت فى قبائل البجة شرقى السودان ، وبالمثل عبرت عشائر من هوازن البحر الأحمر إليها . ويحدث أن تُغيّر قبائل البجة على أسوان فى عهد المأمون فيرسل إليها حملة تقهرها وتعقد معها معاهدة تنصُّ على أن لا تهدم البجة شيئا من المساجد التى بناها المسلمون فى سائر ديارها طولا وعرضا . وبذلك فُتحت الأبواب على مصاريعها لنزول القبائل العربية بين أهل البجة ، ونزحت إليها عشائر كثيرة من قبيلة ربيعة

العربية فى السودان للشيخ عبد الله عبد الرحمن الأمين ويعرض بالتفصيل دخول العرب فى السودان على مر التاريخ والطرق التى سلكوها إليه وما شاع فى السودان من العادات العربية وأمثال العرب ولغتهم .

(١) انظر فى تعرب السودان ما كتبناه فى الفصل الأول عن السودان فى العصور الإسلامية ودولة الفونج ، وكتاب تاريخ الثقافة العربية فى السودان للدكتور عبد المجيد عابدين ص ٩ - ٢٦ وتاريخ السودان القديم والحديث لنعوم شقير ودائرة المعارف الإسلامية وكتاب

عملت في مناجم الذهب بوادي العلاقي الممتد من أسوان إلى عيذاب ، واستطاعوا أن يدخلوا في الإسلام من البجة عشائر معروفة باسم الحدارب ، ويقول المسعودي هم وحدهم الفئة المسلمة في البجة لزمه سنة ٣٢٤ هـ/٩٣٥ م ويدل على كثرتهم أن أحد زعماء ربيعة هناك بشر بن إسحق كان يركب في ثلاثة آلاف من ربيعة وأحلافها من مضر واليمن وثلاثين ألفاً من مقاتلة البجة وكلهم من الحدارب . وكانت لغة أهل البجة حامية وتسمى التبادوية ، وكانوا ينتشرون من عيذاب إلى كسلا ، وأخذ الإسلام - ومعه العربية - ينتشر بينهم مع مر الزمن ، ودخلت لغتهم من العربية ألفاظ كثيرة ، ولا يزال بعض البجاويين وخاصة في الغرب يحتفظون بالتبادوية مع تكلمهم بالعربية ، يقول نعم شقير عن قاطني « سواكن » من البجة إنهم يتكلمون البجاوية في منازلهم ومجالسهم الخاصة، ولكنهم في المجالس العامة يتكلمون العربية.

وظلت مملكة مقررة النوبة المسيحية تقاوم الإسلام والعروبة قروناً ، وتغير على ميناء عيذاب المصرى وأسوان في عهد الظاهر بيبرس ، فيرسل إليها حملة تأديبية ، وتتغلغل في ديارها حتى دنقلة ، ويفرض عليها ولائها لمصر وأن يكون ملكها نائباً في النوبة عن بيبرس ، ويولّى عليها نائباً له ملكاً مسيحياً من أهلها وتظل تحاول الاستقلال عن مصر في عهد قلاوون وتتطور الظروف في عهد ابنه الناصر ويولّى عليها سنة ٧١٦ هـ/١٣١٦ م ملكاً مسلماً من نفس الأسرة المالكة . وسرعان ما استولت على مملكة مقررة النوبة قبيلة ربيعة ونشرت بها الإسلام وبذلك انمحت مملكة النوبة المسيحية نهائياً ، وظلت مملكة علوة المسيحية جنوبيها تحاول مقاومة النفوذ الإسلامي إلى أن قضت عليها نهائياً دولة الفونج الإسلامية . ومعروف أن اللغة النوبية إحدى اللغات الحامية في السودان . ولا يزال أهل بعض مناطقها يستخدمونها في حياتهم اليومية ، ودخلها كثير من الألفاظ العربية حتى لتبلغ كما يقول الدكتور عبد المجيد عابدين ثلاثين في المائة من مجموع ألفاظها وكانوا يستعملون معها العربية .

وعوامل متعددة جعلت غربي السودان يعتنق الإسلام ، منها نزول تجار مملكة البرنو والكانم الإسلامية في أسواق دارفور وكردفان ، ومنها مرور حجاجهم بتلك المنطقة ورؤيتهم لهم وهم يفرشون سجاجيدهم ويصلون داعين الله أدعيات مختلفة ، ومنها هجرة كتلة ضخمة من قبيلة زوارة المغربية المسلمة ومن عرب الشاوية ( رعاة الشاة ) إلى إقليم دارفور ووادي في القرن الخامس الهجري ، وقد كونوا مملكة إسلامية كبيرة ، كان من ملوكها الملك سليمان وشملت مملكته الكانم ووادي وشطرا كبيرا من دارفور . وكانت تسود في الغرب لغات حامية وبربرية على ألسنة المهاجرين إلى الغرب من زوارة وعربية على ألسنة الشاوية ونوبية على ألسنة التجار المهاجرين من دنقلة إلى دارفور . واختلف أهل الغرب ، منهم من يتكلم العربية إلى جانب لغته الأصلية : البربرية أو النوبية أو الحامية بجانب العربية ، ومنهم من يتكلم العربية وحدها مثل سكان قبيلة القمر إلا ما كان من جماعة أبي جوخة .

وواضح أننا لا نصل إلى القرن العاشر الهجري إلا وقد أخذت أجزاء من السودان تتعرب نهائياً مثل حدارب البجة ، وأجزاء أخرى أخذت تضيف العربية إلى لغتها الأصلية كما في البجة والنوبة وبعض جوانب الغرب في دارفور ، ما عدا سكان قبيلة القمر فإنهم تكلموا العربية ونسوا لغتهم الأصلية . وتؤسس دولة الفونج في سنار سنة ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م وتعلن أنها دولة إسلامية في نظمها السياسية والإدارية وأن العربية لغتها الرسمية وكتبت بها وثائقها ، وشجعت العلماء على تدريس الفقه والعلوم الإسلامية والعربية وأخذت تحدث نهضة علمية في بلادها التي امتدت شمالاً حتى الشلال الثالث وشرقا حتى حدود الحبشة والبحر الأحمر وغربا حتى بعض مناطق كردفان وجنوبا حتى منطقة نهر السوبات وبحر الغزال ، فكل هذه المناطق عمت فيها دولة عربية إسلامية - هي دولة الفونج - لمدة ثلاثة قرون ، بحيث نستطيع أن نقول إن السودان تعرّب في عهد هذه الدولة . ومرّ بنا ما كان بها من طرق وتجمعات صوفية وما كان بها من نهضة ثقافية ، وتأسست في جبال النوبا غربى السودان الأوسط مملكة تغلى سنة ٩٧٧ هـ / ١٥٧٠ م وظلت إلى أواخر القرن التاسع عشر وقد عملت بقوة على إتاحة الفرصة للعناصر العربية بالتوغل في الشمال الشرقى من تلك الجبال ، ووضعت نصب عينها نشر الإسلام والعربية وشجعت القبائل العربية في حوض النيل وشرقى السودان على الهجرة إليها . وتأسست في دارفور سلطنة أسستها قبائل التنجور القادمة من بلاد النوبة وقبائل الكنجارة القادمة من إقليم بحيرة تشاد ، ويبدو أنهم كانوا من عرب الحلالية الذين اكتسحوا تونس في القرن الخامس الهجري إذ كانوا يتنسبون إلى أبي زيد الحلالى . وقامت هذه السلطنة سنة ١٠٤٦ هـ / ١٦٣٧ م وظلت حتى سنة ١٢٩١ هـ / ١٨٧٥ م وتبعثها وادى وبرنو في عهد ملكها الأول سليمان سلونج ، وعملت هذه المملكة طوال عهدها على نشر الإسلام والعربية ، ومثلها كردفان . وكان بدوى أبو صفية يأتي ببعض أهل جبال النوبا إلى مدينة الأبيض ، فيحفظهم القرآن الكريم والضرورى من الفقه وعلم التوحيد ، ويعيدهم إلى بلادهم لنشر الإسلام .

ويمكن القول بأننا لا نصل إلى أواخر عهد دولة الفونج في أوائل القرن التاسع عشر الميلادى إلا وقد تعرّب السودان ، ما عدا بعض الجبال الشاهقة المنزلة التي لم يتج للقبائل العربية الاختلاط بسكانها مثل جبل مرة في أقصى الغرب وما عدا سكان قبيلة الأمرار من قبائل البجة بجوار الحبشة لوعورة المسالك إليها مما جعلها تتأخر في التعرب بالقياس إلى أخواتها من قبائل البجة . ووصل التعرب إلى بيئة الغابات في الجنوب عن طريق بعض القبائل العربية مثل البقارة في كردفان وبنى سليم عند كاكأ على النيل الأبيض ، ولهم فضل تعرب الشلك ومثل اختلاط عرب الزريقات بقبائل الدينكا في بحر العرب . وأكثر أجزاء هذا التعرب كانت تستخدم لغاتها المحلية بجانب العربية ، وأخذ هذا التعرب يستقر ويتسع مع مر الزمن طوال القرن التاسع عشر .

## شعراء المديح

من يقرأ كتاب الطبقات لودضيف الله يعرف أن الشعراء كانوا يكثر من مدح ملوك الفونج منذ قامت دولتهم فى سنار ، غير أن مدائحهم لم تكن من الجودة بحيث نستطيع عرض نماذج كثيرة منها ، ونجد الشيخ الصوفى فرح ودكتوك المتوفى سنة ١٠١٧ هـ / ١٦٠٩ م بعد قيام دولتهم بنحو قرن يعنى على الشعراء فى عهده وقوفهم المتكرر على أبواب ملوك الفونج أو سلاطينهم يستمنحونهم الهبات والعطايا قائلا<sup>(١)</sup> :

يا واقفاً عند أبواب السلاطين . ارفق بنفسك من هم وتخزين  
 إن كنت تطلب عزاً لافناء له فلا تقف عند أبواب السلاطين  
 خلل الملك بديناهم وما جمعوا وقم بدينك من فرض ومسنون  
 استغن بالله عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بديناهم عن الدين

والشيخ فرح ود تكتوك ينهى الشعراء عن الوقوف بأبواب السلاطين انتظاراً لأعطياتهم ويقول لهم : رفقاً بأنفسكم وما تحملونها من هم الانتظار لتلك الأعطيات ، ومن يطلب العز الخالد لا يقف بتلك الأبواب إنما يقف بباب ربه ، تاركا للملوك دنياهم وما جمعوا مع أداء فروض دينه ونوافله ، مستغنيا بالله وما يرزقه عن دنيا الملوك كما استغنوا هم بديناهم ومتاعها عن الدين . وقد أخذ شعر المدح يكثر فى السودان منذ القرن التاسع عشر الميلادى ، وكان لثورة المهدي الحظ الأوفر فيه ، فقد حقق للسودان استقلالاً وانتصارات متعددة وكأنا أعاد إليها الروح التى كانت فقدتها وجعلها تشعر بشخصيتها فى عمق ، مما جعل كثيرين من الشعراء يتخون بمدحهم وانتصارات جيوشه بائين فى ذلك غير قليل من الحماسة الملتهبة مشيرين إلى دعوته الدينية وأنه يأخذ فيها بهدى القرآن والسنة النبوية من مثل قول عبد الغنى السلاوى قاضى دنقلة<sup>(٢)</sup> :

ما هذيه غير الكتاب وسنة  
 أجلى الصدا وأزاح أنواع الردى  
 أمست به آثار طه ونورها  
 فالمجد فيه مؤئل والفضل من  
 والطاركون لذلك هم كفرة  
 وسمت به فوق السما علياء  
 يعلو ولا يعلو عليه سناء  
 ه مؤئل والناس فيه سواء

عبد الرحيم ( طبع الخرطوم ) ص ٨٣ وانظر شعراء  
 الوطنية للدكتور صلاح الدين المليك ( طبع دار جامعة  
 الخرطوم ، ص ٣٢٢ .

(١) انظر طبقات ود ضيف الله ( طبع صديق ) ص  
 ١٥ وشعراء السودان جمع سعد ميخائيل ( طبع  
 القاهرة ) ص ٢٦٠ .

(٢) نقات اليراع فى الأدب والتاريخ والاجتماع لمحمد

وهو يقول إن دعوته قائمة على الأخذ بالكتاب والسنة النبوية ، ومن يرفض دعوته يكون كافرا ويصفه بأنه نَحَى الصِّدَأ والكدرَة عن وجه الحياة في السودان وَنَحَى أنواع الهلاك والبوار ، ويقول إن עליاءه علت به فوق السموات السبع ، وأمست آثار طه تتعالى ولا يعلو عليها سناء ولا نور ، ويذكر أن مجده أصيل والفضل منه مؤمل يشترك فيه السودانيون جميعا ، وستترجم عما قليل لشاعرين من شعراء المهدي هما : حسين زهراء ومحمد عمر البنا . وكان قائد جيش الأنصار عثمان دقنة في شرقي البلاد بمدينة هندوب قرب مدينة سواكن ومعه فرق كبيرة من الجيش فبلغ التعايشي خليفة المهدي أن جيشا إنجليزيا يتقدم نحو سواكن ليفاجئ عثمنا دقنة في هندوب ، فكتب إلى عثمان دقنة يأمره بالانسحاب من المدينة لاستدراج العدو إلى شعاب الجبال ، ومباغتته هناك ، ونكل عثمان دقنة بالجيش الإنجليزي في هشيم ، وفي ذلك يقول محمد الطاهر المجذوب كاتبه في قصيدة حماسية<sup>(١)</sup> :

هندوب تعرف صَبْرنا	كيف ارتكَبْنَا للمصاعب
وهشيمُ تشهدُ عزمنا	كيف أدْرَعْنَا للمصائب
يا طالما صدنا بها	صَيْدَ الغَضَنْفَرِ للتعالب <sup>(٢)</sup>
نَحَى لدين الله بل	في شأنه نَلْقَى المعاطب <sup>(٣)</sup>
متوسلين إليه بالـ	مهديُّ وِجْهَةٌ كلُّ راغب
وخليفة المهدي عِبْ	دِ الله مفتاح المطالب

وهو يقول إن « هندوب » تعرف صبرنا في الحرب وكيف نعد العدة لها ، وتلك « هشيم » تشهد عزمنا المصمم وكيف أخذنا أهبتنا للحرب ، وكانت حربا ضارية صاد جيشنا فيها الأعداء صيد الأسد للتعالب . وإنما نَحَى للدفاع عن دين الله معرضين أنفسنا للموت من دونه ، متوسلين لإلحنا بإمامنا المهدي وخليفته عبد الله التعايشي مفتاح كل مطلب للشعب السوداني . ويمدح المضوى عبد الرحمن الزبير باشا حاكم بحر الغزال للخديوي إسماعيل ، وكان قد نزل القاهرة بعد ثورة المهدي ، وكان من أنصارها وأرادت حكومة مصر محاكمته فتوسط له الزبير باشا فعُفِيَ عنه ، فامتدحه بقصيدة يقول فيها<sup>(٤)</sup> :

هو فخر سنار الذي عظمت به	وجداه عمُّ بها جميع السَّاحِ <sup>(٥)</sup>
وتواضعت عظمائها لعلاه إذ	علموا بما أوتى من الفتح
من فطنة ونزاهة وشهامية	وشجاعة في الغارة الملحاح

(٤) نغفات اليراع ص ٩٧ . وشعراء الوطنية في السودان

ص ٣٣٨ .

(٥) جداه : عطاؤه .

(١) نغفات اليراع ص ٩٣ وانظر شعراء الوطنية في

السودان ص ٩٠ .

(٢) الغضنفر : الأسد .

(٣) المعاطب : المهالك .

يَحْنُو عَلَى مَسْكِينِهِمْ بِتَعْطُفٍ وَيَسُدُّ ثَلْمَهُمْ يَخْفُضُ جَنَاحَ  
فَلَذَا تَرَاهِمَ يَلْهَجُونَ بِذِكْرِهِ لَا يَطْرِبُونَ بِغَيْرِ هَذَا الرَّاحِ (١)  
فَاللَّهُ يَبْقِيهِ وَيَجْعَلُ سَعْيَهُ فِي كُلِّ مَا يَهْوَى قَرِينَ نَجَاحَ

والمضوى يقول إن الزبير فخر « سنار » الذى أتاح لها عظمة ومجدا ، والذى عمَّ جوده بها جميع الساحات ، ويذكر أن عظماءها تواضعوا له لما أسبغ الله عليه من نعم : فطنة ونزاهة ومروءة . وإنه ليسد ثلمهم وكل ما ينزل بهم من خطوب مع تواضع شديد ، ولذلك يولعون بذكره ولا يطرِبون إلا لترداد اسمه وكأنه خمر مسكرة لهم . ويدعو له بطول العمر وأن يوفق فى كل ما يسعى إليه مقترنا بالنجاح المنشود . ويمدح عبد الرحمن شوقى السيد على الميرغنى ، وكان فيما يبدو رئيس الطائفة الميرغنية الصوفية - قائلًا (٢) :

بِكُمْ - آلَ طَهَ مَا حَيَّيْتُ - مَتِيمٌ وَفِيكَ مَدِيحِي دُونَ غَيْرِكَ يَا عَلِيَّ  
وَمَنْ ذَا يَرَى فِي الْعَمْرِ وَجْهَكَ مَرَّةً تَقَرُّ بِهِ عَيْنَاهُ يَوْمًا وَتَمْتَلِي  
فِيَسْلُو هَوَى آلِ النَّبِيِّ ، وَحُبُّهُمْ جَرَى فِيهِ مَجْرَى الرُّوحِ فِي كُلِّ مَفْصَلٍ  
وَإِنَّكَ لِلْإِسْلَامِ رُكْنٌ وَمَوْئِلٌ لِتَحْفَظَهُ يَا خَيْرَ رُكْنٍ وَمَوْئِلٍ  
وَرِثَتْ كَرِيمَ الْمَجْدِ عَنْ أَكْرَمِ الْوَرَى وَنُورَ الْهُدَى عَنْ وَجْهِهِ الْمُتَهَلِّلِ

وهو يقول إننى متيمٌ صباية بحب آل طه ، حبا يتعمقنى طوال حياتي ، وإنى لأقصر عليك - لهذا النسب الكريم - مديحى ، وإن من يرى وجهك فى حياته مرة تَقَرُّ به عيناه وتمتلئ فرحا ولا يستطيع سلوا عن حب آل النبى ، وكيف يسلوهم وحبهم يسرى فيه مسرى الروح فى أعطاف الجسد ومفاصله ، وإنك لركن للإسلام وحصن لصونه ، يا خير ركن له وحصن ، وقد ورثت عظيم المجد عن أعظم الورى محمد ، وورثت نور الهدى عن وجهه المتهلل المضيء . وتتوقف قليلا لترجم لشاعرى المهدي : حسين زهراء ومحمد عمر البنا .

### الشيخ حسين (٣) زهراء

وُلد الشيخ حسين إبراهيم زهراء حوالى سنة ١٢٤٨ هـ / ١٨٣٣ م بقرية وادى شعير فى المسلمية جنوبى الخرطوم بنحو ١٥٠ كيلومترا لأبوين عباسيين ، وتوفى سنة ١٣١٣ هـ / ١٨٩٥ م . عُنَى أبوه بتعليمه لما لاحظ من فطنته وذكائه ، وبعد حفظه للقرآن الكريم أخذ ينهل من حلقات علماء الدين . وفى نحو العشرين من عمره رحل إلى القاهرة والتحق بالأزهر ، وظل فيه سبع سنوات مكبا على حلقات شيوخه ، حتى إذا اكتمل زاده العلمى عاد

(٣) انظر فى ترجمة الشيخ حسين زهراء نفاثات الرياح

ص ٨٩ شعراء السودان ص ٦ وشعراء الوطنية ص ٦٥  
ر ٣٢٢ وما بعدها .

(١) الراح : الخمر .

(٢) شعراء السودان لسعد ميخائيل ( طبع القاهرة ) .

ص ٢٠٢ .

إلى موطنه ، والتف حوله كثير من الطلاب السودانيين يفيدون من علمه . ولما قام المهدي بثورته ظل فترة ينتظر مصيرها ، حتى إذا انتصر المهدي على حملة هكس باشا الإنجليزي في الأبيض وأبادها وفد عليه ، فقابله بغير قليل من الخفاوة إلا أنه لم يسارع إلى تعيينه في وظيفة من وظائف دولته الكبرى ، فنظم قصيدة همزية طويلة بها تلميحات إلى ما ينبغي على المهدي من عناية بالعلماء من أمثاله وإسناد الوظائف المهمة إليهم . ويبدو أن المهدي لم يعجبه منه هذا التلميح ، وقدم إليه مدائح أخرى ، وظل غاضباً بصره عنه . حتى إذا تولى بعده رئاسة الدعوة المهدي خليفة عبد الله التعايشي استقدمه وعهد إليه بتدريس مادتي الحديث النبوي وعلم الفرائض ( الموارث ) . وخلت وظيفة قاضي القضاة فعينه فيها ولقبه بلقب قاضي الإسلام ، وكان يُحق الحق لا يبالي بأحد ، فعرضت عليه قضية ومعها فتوى تهتم الخليفة التعايشي ، فحكم فيها بالحق الذي يقتضيه الشرع . وعزله التعايشي فنظم فيه قصيدة هجاء فسجنه ، ويقال إنه منع عنه الأكل والشرب فتوفى صبراً . وكان شاعراً بارعاً ، وقصيدته الهمزية في مدح المهدي طويلة ، ومن تلويحاته فيها له بما ينبغي في دولته من تقديم العلماء قوله في تضاعيفها :

برح الخفا ما الحق فيه خفاءً	وتوالت الآيات والأنباءُ
بالآية الكبرى التي بظهورها	كامل الرضا وانجابت الأسواء <sup>(١)</sup>
مهديُّ ربِّ العرشِ مُنتظرُ الوَرَى	وآلى الولي والأكرمون وراءُ
علماءَ أمةٍ أحمدٍ ناشدُتكم	ردُّوا جوابي إنكم علماءُ
أرضي وترضون الضلالَ يُعَيِّد ما	ظهر الهدى وانجابت عنه فداءُ
ويخيبُ ظني فيكمُ وعشيرتي	أنتم ويقمع جمعنا الغبراء <sup>(٢)</sup>
جهلُ السوالة أمان دين محمدٍ	وأهيلهُ ماتوا وهم أحياءُ

وهو يهمل لظهور الحق وتوالي العلامات والأنباء بظهور الآية الكبرى المتجسدة في المهدي والتي كمل للشعب السوداني بها الرضا وانزاحت الأسواء والشروع ، فقد أظهر رب العرش المهدي منتظر الأمة السودانية . ولا يلبث في الشطر الثاني أن يقول إنه يقدم من بادروا إلى بيعته ، بينما يؤخر الفضلاء ويعددهم وراءهم ، ويناشد علماء الأمة أترضون هذا الضلال ، بعدما اتضح الهدى وانحسرت الأقداء عنه ، ويخيب ظني فيكم ويقهرنا الغبراء ، ويتمادى الولاة في جهلهم . ويتساءل ثانياً أماتت شريعة محمد وأهلها من العلماء وهم أحياء . والتصيدة تحمل حملة عنيفة على المهدي وأوليائه وأنصاره الذين يقربهم قربي رفيعة . ويمدحه بقصيدة عينية يقول فيها :

(٢) بقمع : ينهر .

(١) أسواء جمع سوء

عمادُ الهدى أسُّ الجَدِّا معدُّمُ العِدِّا  
ملاكُ أساطينُ الخلافة كفوُّها الـ  
إمامُ الهدى الهادى لكلُّ ومرشدُ  
به أُخبرت من قبلُ وقتَ ظهوره  
بدا وإليه الناسُ فى الأرض نُجَعُ<sup>(١)</sup>  
معدُّ لها الحصنُ الحصينُ المنعُ  
بهامته التاجُ النفيسُ المرصعُ  
صحاحٌ رواها هيرزى ومُوضِعُ<sup>(٢)</sup>

وهو يقول إن المهدي العماد الذي يقوم عليه الهدى وأس العطاء ومميت الأعداء ، ظهر للناس يطلبونه هو وعطاياه ، إنه ملاك ، ونعم الكفاء المعد لأعمدة الخلافة والحصن الحصين ، إمام الهدى الهادى المرشد لكل الناس ، وإن رأسه ليزدان بتاج الهدى النفيس المرصع . ويبالغ حسين زهراء مبالغة مفرطة إذ يقول إن أحاديث صحاحا بشرت به قبل ظهوره ، رواها محدث مقدم مسرع فى خطاه . ويمدحه بقصيدة دالية ، وفيها ينشد :

الأمر جدُّ والخطوبُ جدادُ  
حربٌ بمحرابِ الهدى من بأسه  
لِمَ لا وأملاكُ السموات العُلا  
للحق جِئاء وللمنابر قاتلُ  
وجنودُ مهدىِّ الرِّزى أمجادُ  
بِشَّاتِها تنزلزل الأَطواد<sup>(٣)</sup>  
فى جيشِ مهدىِّ الرِّزى أجنادُ  
وعلى الفِعال من المقال مزاد

والقصيدة حماسية ، وبدأها حسين الزهراء بأن الأمر جد والخطوب متجددة وجند المهدي أمجاد أبطال ، وإن حربا يقودها المهدي من محراب الهدى لتزلزل لها الجبال ، إذ ليس جندها من أسود السودان الأشداء فحسب ، فإن الملائكة من السموات الرفيعة تشترك معهم فى الحرب تؤيدهم وتنصرهم ، ولا عجب فقد جاء المهدي لإقرار الحق وإزالة كل منكر ، وإن فعاله لأعظم من أن يحيط بها مقال .

### الشيخ محمد<sup>(٤)</sup> عمر البنا

ولد الشيخ محمد عمر البنا فى رفاعة بإقليم الجزيرة سنة ١٢٦٤ هـ/١٨٤٨ م وتوفى سنة ١٣٣٦ هـ/١٩١٨ م وحاول الاشتغال بالتجارة فى مطالع شبابه وخسرت تجارته ، فتركها إلى حلقات الشيوخ ينهل منها ، وفى الثالثة والعشرين من عمره رحل إلى القاهرة واختلف إلى دروس شيوخه مدة غير قليلة ، وعاد إلى موطنه . ولما قام المهدي بدعوته هاجر إليه وبايعه وأخلص فى بيعته ، وامتدحه وأصبح شاعره وشاعر دعوته ، ولزمه ولزم خليفته عبد الله

الشعر الحديث فى السودان للدكتور محمد إبراهيم الشوش ص ٣٠ وما بعدها وفى مواضع مختلفة ( نشر معهد الدراسات العربية العالية بالجامعة العربية ) وشعراء الوطنية فى السودان طبع دار جامعة الخرطوم ص ٨٨ و ٣١٧ وما بعدها .

(١) نجع جمع ناعج : طالب الكلأ .  
(٢) هيرزى: شجاع مقدم. موضع : مسرع فى خطاه .  
(٣) الأطواد : الجبال .  
(٤) انظر فى ترجمة الشيخ محمد عمر البنا وشعره نثبات البراع ص ١٠٠ وشعراء السودان ص ٢٧٣ وكتاب

التعاشي ، وقربه منه ، وجعله بمنزلة مستشار له ، ولما انتهى عهد التعاشي والدعوة المهديّة عيّنته الحكومة الثنائية قاضياً ثم مفتشاً للمحاكم الشرعية إلى أن لَبِيَ نداء ربه . وكان شاعراً مجيداً ، بل كان أبرع شعراء السودان في زمنه ، ويتميز بأسلوب جزل رصين ، وشعره في المهدي والدعوة المهديّة يكتظ بحماسة قوية على نحو ما نرى في تائيته التي طارت شهرتها ، وهو يستهلها بقوله :

الحربُ صَبْرٌ واللقاءُ ثباتُ	والموتُ في شأنِ الإلهِ حياةُ
والجبنُ عارٌ والشجاعةُ هيبةُ	للمرءِ ما اقترنتُ بها العزماةُ
والصبرُ عند البأسِ مكرمةٌ ومقد	دامُ الرجالِ تهابهُ الوقاةُ
والفخرُ كلُّ الفخرِ بيعُ النفسِ للـ	ه العليُّ وأجرُها الجنّاتُ
إن الجهادِ فضيلةٌ مرضيةٌ	شهدتُ بِمُحكَمِ أجرِها الآياتُ
قد حاز هذا الافتخارُ جميعه	صَحْبُ الإمامِ السادةِ القاداتُ

وهو يقول لأنصار المهدي محمداً لهم : الحرب صبر واللقاء ثبات واستماتة ، وإنها حرب عظيمة في نصره دين الله ، والجبن والقعود عنها عار لا يماثله عار ، وما أعظم الشجاعة المقترنة بالعزيمة وما أعظم الصبر حتى الموت ، بل إن الموت ليهاب شجعان الرجال ، وإن بيع النفس لله العلي فخر لا يماثله فخر لعظم الأجر من الجنّات ونعيمها الخالد ، إنها ليست حرباً بل جهاداً في سبيل الله ودينه الحنيف الذي نزل القرآن الكريم بمحكم أجره وثوابه من مثل قوله : ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ ويقول إن هذا الفخر جميعه حازه صحب المهدي وقواده . ويشيد بجهادهم في نشر الدعوة المهديّة منشداً :

قومٌ إذا حَمَى الوطيسُ رأيَهم	شُمَّ الجبالِ ، وللضعيفِ حماةُ
ولباسُهُم سَرْدُ الحديدِ وبأسُهُم	شهدتُ به يوم اللّقا الغاراتُ
وخلوقُهُم صِدْأُ الدروعِ ، لحزمِهِم	قتلُ الأعداى عندهم عاداتُ
في السلمِ تلقاهُم ركوعًا سُجَّدًا	أترُّ السجودِ عليهمُ وسِماتُ
وتخالُهُم يوم الجِلاَدِ ضراغماً	أسدٌ وأسئلُ رماحِهِم غاباتُ
ركبوا الجيادَ وغادروا شِلْوُ العدا	رزقَ النُورِ ولحمُهُم أقواتُ
والأرضُ سالتُ بالدماءِ وما بها	غيرُ الجماجمِ والشعورِ نباتُ

فهم قوم بوسائل إذا دارت رحا الحرب رأيَهم جبلاً شاهقة لا ينالها أحد ، وهم مع ذلك حماة لكل ضعيف يأخذون بيده ، لباسهم دروع متينة النسيج ، والغارات تشهد بشجاعتهم الخارقة ، وليس لهم طيب إلا صدأ الدروع ، مع اكتمال حزم في قتل الأعداى والتكثير بهم .

أما فى السلم فدائما راكمون ساجدون لله وعلى وجوههم أثر السجود وعلاماته . ويوم النزال تظنهم أسدا وقد بدت رماحهم الطويلة فوقهم وكأنها غابة ضخمة . ويقول إنهم يبادرون إلى الحرب فيركبون خيولهم ، وما هى إلا ساعات يغادرون بعدها ساحة الحرب وقد خطفوا للنسور طعامها من لحوم أعدائهم ، وتسيل الأرض بدمائهم وكأنما أثبتت جماجم وروعسا لكثرة القتلى . ويشيد البنا عقب ذلك بانتصاراتهم وإعلائهم لكلمة الله وإرضائهم لرسوله وقمعهم لأعدائهم ، ويحث المهدي على غزو الخرطوم وإخراج الغواة المفسدين منها ضاربا له المثل بجهاد الرسول والصحابة ضد العتاة الظالمين ، ويهنيء الشهداء من جيشه ، فالخور العين تنتظر لقاءهم فرحا بهم ، والجنات تزينت لقدمهم . والقصيدة شعلة من الحماسة الملتهبة . وللبنا قصيدة يمتدح بها عثمان دفته قائد جيش المهديين فى شرقى السودان ، وفيها يصور بسالة جنوده منشدا :

بعثت لهم همم الجهاد ملابس النصر العزيز يمدّه التصويب  
وأمدّهم جيش الملائك ناشرا رايات نصر البلاد تجوب  
فسيوفهم مسلولة ورماحهم مسنونة وعدوهم مرعوب  
وعدوهم دوماً يَغصُّ بريقه والرعب منهم للقلوب يذيب  
إن نوزلوا كانوا الليوث معاركاً أو غولبوا فعدوهم مغلوب  
أو حوربوا فالرعب من أعوانهم دوماً وعقل عدائهم مسلوب

وهو يقول : كأنما همم الجهاد القعساء أرسلت إليهم ملابس النصر ترافقها إصابة الأهداف ، بل لقد زوّدهم جيش الملائكة برايات نصر نشرها فى البلاد ، وسيوفهم مسلولة من أعمادها ورماحهم مسنونة قاطعة ، وأعداؤهم غاصون بريقهم من شدة رعبهم ، بل ليكاد الرعب يذيب قلوبهم . وإن نوزلوا فى معركة كانوا أسودا وإن غولبوا غلبوا وقهروا الأعداء قهرا ، أو حوربوا كان الرعب من أنصارهم دائما ، ودائما كان عقل أعدائهم مسلوبا من هول حريهم ونزالهم الضارى .

٣

### شعراء الفخر والحماسة

مرت بنا أشعار حماسية زمن الدعوة المهديّة لمحمد الطاهر المجذوب ومحمد عمر البنا ، وناقى بالشاعر يحيى السلاوى السودانى يرحل إلى مصر للمشاركة فى الثورة العراقية ، وسفرد له ترجمة عما قليل ، نعرض فيها له قصيدة حماسية . وتلقانا عند عثمان هاشم حماسية بديعة فى حرب مصطفى كمال لليونان وإخراجهم على وجوههم مدحورين من الأناضول ، وسنخصه

بترجمة ، ولغير شاعر سوداني فخر حماسي ، وهو يتخذ صوراً متعددة ، من ذلك فخر الشخص بنفسه وآبائه مثل قول عبد الله الكردى المولود سنة ١٣٠١ هـ/ ١٨٨٤ م<sup>(١)</sup> :

إبني ابنُ أنثى حُرَّةٍ عرييةٍ      أبأوها بيضُ الوجوه فُحولُ<sup>(٢)</sup>  
 إبني عريقُ في النجارِ وأبلجٍ      في بُرده كرمٌ يكاد يسيل<sup>(٣)</sup>  
 تُنميه للحى اللقاحِ عشيرة      وأبٌ وقورٌ ماجدٌ يهلول<sup>(٤)</sup>  
 وأنا امرؤٌ زينُ المخافلِ شاعرٌ      لي هِزةٌ نحو السماحِ تميلُ  
 هتفتُ بذكري في البلادِ قصائدي      وشداً يهنُّ على الغصونِ هديلُ

وهو يفخر بأن أمه عربية وأن آباءه بيض الوجوه فاتقون لأعمالهم الجليلة وأنه عريق في أصله مشرق الوجه ، غيث مدرار ، يكاد الكرم يسيل من برده ، يُنسب في عشيرته لحى لم يدن للملوك أبداً ، وأبوه وقور ماجد سيد ، وأنه لزين المخافل شاعر يهتز للشيم الكريمة من سماحة وغير سماحة ، وقد شاع ذكره في البلاد لقصائده البديعة ، وغنى بها على الغصون هديل الحمام وكأنه يرددتها في تلاحينه . ويقول على أرباب مفاخرها بنفسه فيما يقدم لوطنه<sup>(٥)</sup> :

إذا أنا لم أرفع إلى المجد موطني      فلا ساعدي يوماً علته مناكبة  
 أقومى إن ميتٌ اذكروني فإنما      حياتي وقفت للعلا ومراكبه  
 ومالي مقسومٌ لكل عشيرتي      وصدري رحبٌ لا تضيق جوانبه  
 ولا أنا فعألٌ لشيء يشينى      ولستُ بعدالٍ لخلي أعباه  
 هل الخير إلا أن تقوم بواجب      تساعد مسكيناً ويُعطى رغايبه

وهو يقول إنه حرى به الموت إن لم يعيش ليرفع من مجد وطنه وشأنه ، وحرى بقومه أن يذكروه حين يموت ، فحياته كانت وقفا للعلا وأسبابه . ويذكر أن لكل فرد في عشيرته حظاً في ماله ، وأنه حلیم لا يضيق صدره بشيء ، مكرم لنفسه لا يعمل شيئاً يشينه ، ومكرم لصديقه فلا يلومه ولا يعتب عليه في شيء ، ويقول إن الخير كل الخير أن تؤدى واجباً فتساعد مسكيناً ، وتحقق له بعض رغايبه وأمانيه . ويفاخر عبد الرحمن شوقى بجدوده في الزمان القديم<sup>(٦)</sup> :

(١) شعراء السودان ص ١٨٣ .  
 (٢) بيض الوجوه كتابة عن حسن أنعام . فنول : متفوقون .  
 (٣) النجار : الأصل . أبلج : مشرق الوجه .  
 (٤) قوم لقاح : لم يدنوا للملوك . يهلول : سيد كريم .  
 (٥) شعراء السودان ص ٢٤٣ .  
 (٦) نفاثات اليراع ص ١٨٣ .

زمانٌ تولى كان فيه جدودنا  
 إذا ابتسموا فالخلد في بسماتهم  
 وإن عصفروا عودَ الزمان أطاعهم  
 وإن ضربوا دكوا القلاع بعزمهم  
 شمسُ سماءِ المجد أيان أشرقوا  
 لقد نصروا الدين الخنيف وسددوا  
 وساسوا فما جاروا ولا تبعوا هوى  
 إلى أن دعا داعى الردى فتابعوا  
 ليونًا يقودون الخميسَ العرمرمًا<sup>(١)</sup>  
 وإن عبسوا فالكون صار جهنمًا  
 ولأن لهم عاصيه حتى تقوما  
 وأومسوا إلى بنينها فتهدمًا  
 بدورُ الدياجي حيث كانوا وأنجما  
 إلى الكفر سهما فى الفؤاد مصمما  
 ولا حملوا النفسَ الضعيفة مغرما  
 نجوما هوت فالكون أصبح مظلما

وهو يصور المجد التاريخي العظيم لأمتنا العربية فى الأزمنة الغابرة ، ذاكراً أن زمانا مضى كان جدودنا فيه أسدا ضارية ، إذا رضوا وابتسموا فكأنما فتحت أبواب الجنان ، وإذا عبسوا ونازلوا قوما فقد أصبح الكون نارا حامية ، وإن عصفروا عود الزمان انعصر لهم ، وإن عصا قوموه حتى ينعصر ، وإن ضربوا دكَّت القلاع بعزمهم الجبار ، بل لو أشاروا إلى بنينها لخرَّ منقضاً . هم شمس سماء المجد فى كل مكان يجلون فيه ويدور الدياجي فى كل بقعة ينزلونها ونجوم ساطعة ، وطالما نصروا الدين الخنيف وسددوا إلى صدور الكفر وأفدته سهاما مصمية . وساسوا الأمم والشعوب سياسة عادلة لا تميل مع الهوى ، مليئة بالرحمة للضعفاء فلا تحملهم مغرما ، ودار بهم الزمان دورات إلى أن دعاهم داعى الموت فتابعوا نجوما تهاوت وأصبح الكون مظلما . وينشد الشيخ محمد سعيد العباسي حماسية فى الحرب الطرابلسية الإيطالية سنة ١٣٣٠هـ/١٩١٢م ، وقد انتصر الطرابلسيون فى بعض المواقع ، وفيها يقول<sup>(٢)</sup> :

يروم بنو روما طرابلساً وقد  
 أثاروا وغى دارت راحاها عليهم  
 أعدوا لها من عدة الحرب كل ما  
 وقد زعموا أن سوف ينجح سعيهم  
 أييدوا فكانوا عبرة الناس بعدهم  
 غزوها بجيش ضاق ذرعاً به القفر<sup>(٣)</sup>  
 وراموا بها فخراً فقاتهم الفخر  
 يضيئ به التعدادُ والبرُّ والبحر  
 ولكنه زعم الأضاليل والهدر  
 وحلقت فى آثار موتاهم النسر

وهو يقول إن أبناء روما قصدوا طرابلس بجيش كثيف ضاق به القفر وسعاً ، ودارت رجا حرب ضارية أراد بها الطليان فخرا فقاتهم ، مع ما أعدوا للحرب من عدة وأسلحة لا يحيط بها العد والإحصاء ولا البر والبحر ، وزعموا أن نصرهم قريب وهو زعم أضاليل وهذيان فقد

(١) الخميس العرمرم : الجيش الكثيف الكثير . ص ٢٣٩ وانظر ديوانه .

(٢) شعراء السودان ص ٢٨٨ وكتاب محمد سعيد

العباسي للذكور أحمد عبد الله سامي ( طبع الخرطوم )

(٣) ذرعا : وسعا .

أيدوا عن آخرهم ، وأصبحوا عبرة وموعظة لكل معتد أثيم ، وحلقت فوق جثثهم النسور  
وانقضت عليها انقضاضا . ويقول مفاخرًا بشيمه الرفيعة وأجداده<sup>(١)</sup> :

القَى بِصَبْرِي حُسَامَ الحَادِثَاتِ ولى عَزْمٌ أَصْدُ بِهِ مَا قَد يَلَاقِينِي  
وَلَا أَتَوَقُّ لِحَالٍ لَا تَلَاثُمُهَا حَالِي وَلَا مَنزِلُ اللَّذَاتِ يُلْهِينِي  
وَلَسْتُ أَرْضَى مِنَ الدُّنْيَا وَإِنْ عَظُمَتْ إِلَّا الَّذِي بِجَمِيلِ الذِّكْرِ يَرْضِينِي  
وَكَيْفَ أَقْبَلُ أَسْبَابَ المَوَانِ ولى آبَاءُ صِدْقٍ مِنَ الغُرِّ المِيَامِينِ<sup>(٢)</sup>  
النَّازِلِينَ عَلَى حَكْمِ العَلَا أَبْدًا مَن زَيْنُوا الكَوْنَ مِنْهُمُ أَى تَزِينِ  
مِن كُلِّ أَرْوَغٍ فِي أَكْتَادِهِ إِيدٌ كَاللَيْثِ ، وَاللَّيْثُ لَا يُضْضِي عَلَى هَوْنِ<sup>(٣)</sup>

والعباسي يقول إنه يتدرع أو يتسلح بصر أمام جسام الحوادث فلا تنال منه ، ويصد بعزمه  
القوى ما يلقاه من خطوب ، ولا يتشوق لحال لا تتفق وحاله ، ومنزل اللذات لا يلهيه ، بل  
يكف نفسه عنه ، ولا يرضيه من دنياه إلا الذكر الجميل والعمل الحميد ولا يقبل هوانا وكيف  
يقبل هوانا أو ضيما ، وآبأوه آباء صدق من المشهورين ميموني النقية الذين لا يتزلون أبدا  
إلا على حكم العلا وقد ازدان بهم الكون زينة رفيعة ، من كل شجاع على كاهله ليد كأنه  
ليث حقيقي ، والليث لا يغمض عينه ولا يستطيع الصبر على هوان وضميم . وحرى بنا أن  
نترجم الآن ليحيى السلاوى السودانى وعثمان هاشم .

#### الشيخ يحيى<sup>(٤)</sup> السلاوى السودانى

ولد الشيخ يحيى السلاوى السودانى بالخرطوم حوالى سنة ١٢٦٢ هـ / ١٨٤٦ م وهو  
ابن عبد الغنى السلاوى قاضى دنقلة الذى مر فى شعراء المديح أنه كان من شعراء المهدي  
وذكرنا له أبياتا من قصيدة فى مديحه هناك ، وكان ابنه يحيى شاعرا مثله ، ونراه حين  
نسبت ثورة عراقى بمصر سنة ١٢٩٨ هـ / ١٨٨١ م يطلب من مدير دنقلة ترحيله إلى  
مصر ، ويرفض طلبه ، فيبرق إلى محمد رءوف باشا حاكم السودان البيتين التالين :

مولائى عَزَّ تَرَحَّلَى وَغَدوتُ مَقْصُوصَ الجَنَاحِ  
فَأَرِشْ جَنَاحِي مِثْلَمَا عَوَّدْتَنِيهِ وَلَا جُنَاحَ .

فأبرق رءوف باشا إلى مدير دنقلة بترحيله على نفقة الحكومة إلى مصر ، وبمجرد أن نزلها  
اندمج فى الثورة ، وعرف أحمد عراقى أنه شاعر فطلب إليه أن ينظم قصيدة لطبعها ونشرها

(٣) أكتاده جمع كند : مجتمع الكتفين .

(٤) انظر فى ترجمة يحيى السلاوى وقصيدته نغاث  
البراع ص ٨٣ وشعراء الوطنية فى السودان ص ٢٨ ،  
٢٩٩ .

(١) شعراء السودان ص ٢٩٣ ونغاث البراع ص ١٣٩  
وكتاب محمد سعيد العباسى ص ١٢٩ وما بعدها وانظر  
ديوانه .

(٢) الفر : المشاهير . الميامين : الماركين .

فى أرجاء مصر . ويقول محمد عبد الرحيم فى ترجمته له بكتابه نفثات اليراع إنه نظم - تلبية لعرابى - قصيدة يائية من تسعة وتسعين بيتا عثرنا على طائفة من أبياتها ، وبلغ من اهتمام عربى والشعب المصرى بها أن طبعت بماء الذهب وبيعت فى شوارع القاهرة ، وكان ثمن النسخة منها جنيها ذهبا ، وبلغ ما عثر عليه محمد عبد الرحيم منها خمسة وأربعين بيتا وهى أشبه بمنشور ثورى وهو يستهلها بقوله :

شَغِلَ العِدَا بَشْتَتِ الأَحْزَابِ	واللَّهُ ناصِرُنَا بسيفِ عربى
والقطرُ فيه من الرجال كفاءة	للحادثات فهم أولو الألباب
وحمة الإسلام تقضى بالوفا	حتما على كل امرئٍ أواب <sup>(١)</sup>
ومحبة الوطن العزيز تحنهم	والفليحُ إذن باتباع صواب
والمشركون خوأسرُّ فى سعيهم	هزموا وقد نكصوا على الأعقاب <sup>(٢)</sup>

والشيخ يحى يقول إن الإنجليز شغلوا بشتت جندهم ، وسامهم الأحزاب أسوة بغزوة كنفار قريش والعرب المسماة غزوة الأحزاب ، ويقول إن الله ناصرنا بسيف الحق : سيف أحمد عربى ، والقطر ملء برجال أكفاء لهؤلاء الأعداء ، وهم مملوءون حمية للإسلام ، تأمر كل مسلم أواب متبل لربه بالوفاء لدينه الخفيف والدفاع عنه بالروح ، وأيضا مملوءون محبة للوطن تحنهم على الدفاع عنه وهو دفاع سينتهى إلى النصر المين ، وقد نصرنا فعلا فى بعض المواقع ، وهو إذن وبشرى بالنصر التام وإن الإنجليز لخاسرون فى حربهم إذ هزموا ورجعوا ناكسين على أعقابهم . ويمضى قائلا :

هيا بنا يا أهل مصرَ إلى الرضا	والفوزِ فى العقبى بغير حساب
أتم أولو الهمم التى بسهامها	كم من عدوَّ أب شرَّ إياب
لا تشغلنكم الحياة فإنها	ذل لمن يرضى بهتك جناب
ولقد نرى إخواننا فى حالة	تحتاجُ للأعوان والأصحاب

وهو يهيب بأهل مصر أن يؤيدوا عربى ويشتركوا فى حرب الإنجليز طلبا للفوز فى الآخرة ويقول إنكم أولو الهمم المصممة ، وما أكثر ما نكلتم بأعداء بلدكم حتى أبوا شر مآب ، ولا تشغلنكم الحياة عن واجبكم فى الدفاع المستميت عن بلدكم ، وإنه لذل لأى أمة ما مثله ذل أن ترضى بهتك العدو لأى ناحية من نواحيها ، وإن إخواننا من الجنود وقادتهم لفى حاجة إلى العون المادى والحربى ، ويذكر بعض الشخصيات التى ناصرته عربى وأمدته بعون قيم .

(٢) نكصوا على الأعقاب : رجعوا عما كانوا اعتمروه .

(١) أواب هنا : متبل إلى ربه .

والقصيدة وثيقة مهمة في موقف الشعب من ثورة عرابي وتأييده له في حربه ضد الإنجليز الغاشمين . ويقول محمد عبد الرحيم : لما دخل اللورد لسلي بجيشه الإنجليزي إلى القاهرة وأخذت الحكومة تقبض على دعاة الثورة لجأ الشاعر يحيى إلى السيد محمد سر الختم الميرغنى ، فساعده على السفر إلى الآستانة ، وهناك عُيِّن مفتشا للغة العربية في وزارة المعارف التركية .

### عثمان<sup>(١)</sup> هاشم

ولد في مدينة بربر أواخر سنة ١٨٩٨ للميلاد ، وهو من الأسرة الهاشمية السودانية التي شاركت بقوة في العلوم الإسلامية ، وهي تنتسب إلى العباس بن عبد المطلب ، ومن أعلامها أبو القاسم هاشم شيخ علماء السودان ومؤسس المعهد العلمي الدينى بأمر درمان سنة ١٩١٢ والطبيب أحمد هاشم مفتى السودان . بدأ حياته الدراسية بالاختلاف إلى كتاب لحفظ القرآن الكريم ، وتركه قبل أن يتمه للالتحاق بمدرسة مدينة بربر الابتدائية ، ومنها تحول إلى القسم الابتدائي في كلية غوردون وتخرج فيه وعمل في الحكومة السودانية موظفا منذ سنة ١٩١٥ . وشغف بالشعر العربي مبكرا فأكب على دواوينه واستيقظت فيه الموهبة الشعرية سريعا ، ونظم في موضوعات مختلفة جمع منها سعد ميخائيل باقة بديعة حين ألف كتابه شعراء السودان سنة ١٩٢٣ منها قصيدة حماسية في بطل الأناضول مصطفى كمال أتاتورك ، وكان الحلفاء بعد الحرب العظمى الأولى في هذا القرن أغروا اليونان باحتلال أزمير وشطر كبير من الأناضول ، واستحال الشعب التركي إلى عصابات مسلحة تقاوم هذا الاحتلال وانضمت إليها قوات نظامية ، وقاد المقاومة سنة ١٩٢١ مصطفى كمال ، وأخذ الترك يسحقون اليونان سحقا ، حتى اضطر من بقى منهم إلى خروجهم من الأناضول جميعه في سبتمبر سنة ١٩٢٢ وعادت تركيا - بفضل مصطفى كمال - إلى الظهور ببطولتها الحربية القديمة ، وحياء عثمان هاشم بقصيدة رائعة ، يقول له في مطلعها :

ضربت بسيف الحق فاندك باطل	وجئت بما لم تستطعه الأوائل
ودافعت عن دين النبي محمد	ولم تكن منك العزم تلك القنابل
غضبت لدين الله لما رأيته	تمد له من كل حذب غوائل <sup>(١)</sup>
فلما توسطت الأناضول صبحت في	بنيه ألا هبوا دفاعا وناضلوا
فلبتك من أبناء عثمان عصبه	لها في صميم الترك مجد وناقل
وهاجوا غضابا كالأسود وأسموا	بأن يصدقوا بالفعل ما أنت قائل

وهو يقول لمصطفى كمال : ضربت جند اليونان بسيف الحق فاندك حصن باطلهم واحتلالهم الأثيم ، ودافعت عن دين سيد الخلق محمد ، لا تشيك قبائل الأعداء ، إذ غضبت للدين الحنيف

(١) انظر في ترجمة عثمان هاشم وشعره شعراء السودان ص ٢١٤ .

غضبة ضارية ، فقد رأيت دواهي كثيرة تحيط به من كل حَدَبٍ وطريق . ولما توسطت الأناضول صرخت في أهله : هُبُوا وناضلوا عن حماكم ، ولَبَّكُ من أبناء الترك عصابة ذات مجد وعطاء عظيم ، وهاجت هياج الأسود تدافع عن عرينها . ويخاطب مصطفى كمال مصورا بلاء الترك في الحرب إلى أن أحرزوا النصر النهائي العظيم قائلا :

أحاطَ بك الأعداءُ حتى كأنهم • خِضَمٌ عَظِيمٌ لم يَبِينْ منه ساحلُ  
وكم سفكوا منكم دمَاءَ بريئةً • وكم سفحتُ للدُّمْعِ منكم أراملُ  
وما هدَّ هذا منك حزمًا عزمته • وكيف تهذُّ الراسياتِ المعاولُ  
فَسَقِيًّا لأقوامٍ سَقُوا بِدمائهم • ثَرَى وَطَنٍ مُدَّتْ إليه الحبالُ<sup>(١)</sup>  
وذادوا عن الدين الخفيفِ بغيره • كأن صدور القوم منها مَراجِلُ<sup>(٢)</sup>  
هنيئًا لك النَّصْرُ المبينُ وليتنى • بجيشك جنديٌّ تطوَّعَ باسلُ

ويقول عثمان هاشم إن حنود اليونان كانوا كثيرين حتى كأنهم بحر زاخر لا تبين له سواحل ، وكم أراقوا من دماء الترك الطاهرة ، وكم بكت منهم أرامل فقدن أزواجهن ، وما هدَّ ذلك منك شيئا من حزمك وعزمك ، وحقا لا تهذُّ المعاول الراسيات الشامخة . ويدعو الله لهم بالسقيا والرعاية جزاء لدمائهم التي سقوا بها ثرى وطنهم المفضى ، وقد مُدَّتْ إليهم مصيد المكر والغدر ، ودافعوا عن الدين الخفيف بغيره وحمية ، حتى كأن صدورهم مواقد مشتعلة من شدة الغضب . ويمضى عثمان هاشم في قصيدته ويختتمها بتهنئة حارة لمصطفى كمال بنصره المبين ، ويتمنى لو كان جنديا باسلا في جيشه ، ونال حظا من شرف هذا النصر العظيم . ويقول مفاخرًا بقومه :

إني لمن معشرٍ طابتْ أصولهم • فطاب فرعهم والنسلُ والنسبُ  
إن نابك الدهرُ فاستنجدتهم نجدوا • أو مسك الضُرِّ فاستنهنضتهم وثبوا  
عُرٌّ جحاحجةٌ شُمُّ غَطَارِفَةٌ • صيدٌ جهابذةٌ بل سادةٌ نجبٌ<sup>(٤)</sup>

يشير إلى أنه من معشر شريف - إذ هو سليل العباس بن عبد المطلب - معشر طابت أصولهم فطابت فروعهم وطاب نسلهم وذريتهم ، وطاب النسب والاتماء إليهم ، إن أصابك الدهر بنائبة أو كارثة واستنجدتهم نجدوك بكل ما يستطيعون ، وإن مسك ضر واستنهنضتهم

(٤) غر : مشهورون . جحاحجة جمع جحاجح : السيد السمح الكريم . شم جمع أشم : المترفع . غطارفة جمع غطريف : السيد . صيد جمع أصيد : الزهو بنفسه . جهابذة جمع جهيد : المجرب . نجب جمع نجيب : فاضل .

(١) الحدب : ما ارتفع وغلظ من الأرض . غوائل جمع غائلة : الداهية .

(٢) الحبال جمع حبال : الصيدية .

(٣) مَراجِل جمع مرجل : القدر . يريد أنها تغل غليان القدر .

للدفاع عنك وثبوا إليك سراعا ، وهم مشهورون سمحاء كرام مترفعون سادة مزهرون بأمجادهم  
أصحاب فراسة ، بل هم سادة فضلاء . وللشاعر مقطوعة ثانية في الفخر يقول فيها عن قومه :  
قومٌ لقد طابت سرائرهم فلم ترَ غيرَ بذلٍ نَدَى وَسَطِرٍ كَنُوفِ  
هم أفضلُ العربِ الكرامِ عشيرةٌ وأعزُّ أنساباً وشُمُّ أنوفِ<sup>(١)</sup>  
وهمُ الشموسُ إذا الحوادثُ أظلمتْ وهمُ البدورُ بنورها المعروفِ  
وهو يقول إن قومه قد طابت سرائرهم ودخائلهم ، وهم غيوث مدرارة في الجود والكرم .  
وهم أفضل العرب عشيرة ، إذ هم من عشيرة الرسول ﷺ ، لذلك كانوا أعزُّ أنساباً وشُمُّ  
أنوف مترفعين ، وإذا أظلمت الدنيا كانوا شمسها المنيرة وبدورها المضيئة .

#### ٤

#### شعراء الرثاء

#### ( أ ) رثاء الأفراد

بأخذ رثاء الأفراد في الشعر العربي أشكالاً ثلاثة هي النذب والتأين والعزاء ، والنذب  
عادة للأقارب وخاصة الأبناء ويمتلئ بالتفجع عليهم والتحسر والحزن الممض ، والتأين  
لشخصيات القبيلة والأمة لبيان فضائلهم وأعمالهم وخسارة المجتمع فيهم ، والعزاء لبيان أن  
الموت من سنن الحياة وأنه لا يبقى على أحد سيد ومسود . وقد يجمع الشاعر بين هذه الأشكال  
الثلاثة أو يفرد مرثيته لشكل أو شكلين ، ولكل أمة عربية مرثياتها ، وخاصة لرجاليتها المهمين ،  
وقد مرت بنا دعوة المهدي ، وهو أهم الشخصيات السودانية في القرن الماضي ، وقد حقق  
للسودان استقلاله في سنوات معدودات ، ولبيَّ سريعا نداء ربه وهو في الحادية والأربعين من  
عمره ، وبكته السودان وبكاه شعراؤها وفي مقدمتهم الشيخ إبراهيم شريف الدولابي الكردفاني ،  
ويستهل مرثيته بقوله<sup>(٢)</sup> :

كيف التئامُ فواديَ المفظورِ ورُقوءُ دَمَعِ محاجريِ المفجورِ<sup>(٣)</sup>  
أم كيف ينفكُ الضنَّا عن مُهَجَةِ أحشاؤها تصلَّى على التَّنُورِ<sup>(٤)</sup>  
أسفٌ على المهديِّ من مَهْدِ الصُّبا قد كان معصوماً عن المخطورِ  
فَتَحَّ الفتوحَ ودَمَّرَ الكفَّارَ في كلِّ البلادِ بجيشه المنصورِ  
هو مجمعُ البحرينِ : بحرِ شريعةٍ طامٍ وبحرِ حقيقةٍ مسجورِ<sup>(٥)</sup>

وهو يقول إن فواده انفطر وانشق حزنا لموت المهدي ولن يرقأ أو يجف دمه المتفجر ،

(٣) المفظور : المنشق . رقوء : انقطاع .

(٤) التنور : الموقد .

(٥) مسجور : مملوء .

(١) شم أنوف : متعالون مترفعون .

(٢) انظر القصيدة في شعراء السودان ص ٢٧ وشعراء

الوطنية ص ٣٣٦ .

ولن ينفك الضنا عن مهجته ، وكأنما تصلى أحشاؤها وتتحرق على تنور مشتعل ، ويأسف على المهدي ويقول إنه كان معصوماً عن المحذور المحرم منذ صغره ، ودمر جيشه الجيوش التي لقيته . وينعته بأنه كان مجمعا لبحر الشريعة الطامى الزاخر وبحر الحقيقة الإلهية المملوء نُسْكا . ويمضى الشاعر في مرثيته منشدا :

قد كان قَوَّامَ الدُّجَى متبلاً متواصلَ الإحسان غيرَ فخورٍ  
 طلقَ الحياءَ خاشعاً متواضعاً كهفَ الفقيرِ وجابرَ المكسورِ  
 لا يتغنى جاهاً ولا مالاً ولا عزَّ الملوكِ ولا ارتفاعَ الدورِ  
 تبكى المساجدُ والمحاربُ فقده ومواطنُ الأذكارِ والتذكيرِ  
 يا طيبَ أرضٍ ضمَّ جسمكُ تربها تزرى بعرفِ المسكِ والكافورِ

وهو يصف المهدي بأنه كان قوام الليل مصلياً متبلاً لربه ، مواصلاً للإحسان للفقراء والمساكين دون أى فخر أو من ، طلق الحياء بشوشاً خاشعاً متواضعاً ، كهفياً للفقير وملجأً وجابراً للمكسور ، لا يفكر فى جاه ولا فى مال ولا فى عز الملوك وحياتهم المترفة ولا فى القصور المشيدة ، وبكته المساجد والمحارب ويقاع أذكاره وتذكيره ، وما أطيّب الأرض التي ضمت جسده ، إن شذاها يزرى بشذا الطيب من المسك والكافور . ويكى المهديّ الشيخ محمد الطاهر المجذوب بمرثية يفتتحها بقوله<sup>(١)</sup> :

دَهَنَّا دَوَاهِ يَضْرِسُ القَلْبَ نَابِهَا ويوقد فى الأحشاء نارا منابها<sup>(٢)</sup>  
 غَدَاة نَعَى النَّاعُونَ مَهْدِينَا الذى به ملة الإسلام جَلَّ مُصَابِهَا  
 إِمَامُ الهَدَى المَهْدِيُّ أَفْضَلُ مَنْ دَعَا إلى الله مفتاح النجاة وبأبها  
 أَلَا قَدْ أُصِيبْنَا إِذْ عَدَمْنَا حَبِيبَنَا وضاعت بنا الأرضُ الواسعُ رحابها  
 لَيْلِكَ لَه الدِّينُ الحَنِيفُ وَمِلَّةٌ أَبَانَ هُدَاهَا حِينَ تَمَّ خَرَابُهَا

والشيخ المجذوب يقول إنه نزلت بهم دواه يعض نابها القلب ويوقد منابها فى الأحشاء نارا غداة نعى الناعون المهدي الذى جَلَّ مصاب الدين الحنيف فيه ، إنه إمام الهدى ومفتاح النجاة من النار وبابها ، ولقد أصيبنا فى حبيبنا وضاعت بنا الأرض الفسيحة الواسعة الرحاب ، ألا فليكنه الإسلام وملة أوضح هداها بعد أن خربت خراباً لا آخر له . ويكثر رثاء الشعراء لأبائهم فى السودان ، من ذلك قول القاضى أحمد المرضى المولود سنة ١٨٨٤ للميلاد فى رثاء أبيه<sup>(٣)</sup> :

(١) نغاث البراع ص ٩٤ وشعراء السودان ص ٣١١ (٢) يضرس : يعض .  
 (٣) نغاث البراع ص ٣٣١ .

لقد آن أن أبكى وأغرى البواكيا  
وأصبغَ عَبراتي دماً ليس ناضباً  
أبى ما أبى حرٌّ كريمٌ وذو وفاً  
أمينٌ على سرِّ الأخلاء حافظٌ  
وتبواً مهدد العز من نشأة الصبا  
وأنظّم من حبِّ الدموع المراثيا  
يخذُ خدودي مُترَعاً والأماقيا<sup>(١)</sup>  
وما كان ذا وجهين وغلاً مدّاجيا<sup>(٢)</sup>  
وكان لإخوان الصفاءِ مواسيا  
وشبُّ على هام المكارم ساميا

والمرضى يقول إنه حان أن يبكى ويفرى الباقيات بالبكاء وينظم من درر الدموع عقود المراثي ويصبغ عبراته بالدم الذي لا ينضب ولا يجف ، بل يشق الخدود وأماق العيون شقوقاً ملأى به . وينوه بأبيه فهو حر كريم وفى ، وما كان يوماً ذا وجهين نذلاً منافقاً ، بل كان دائماً أميناً على سر إخوانه : إخوان الصفاء مواسيا لهم ، نزل مهد العز وأقام به منذ صباه ، وشبُّ على رءوس المكارم ساميا سموا متصلاً . ويبكى الشاعر الشيخ عبد الله البنا أباه الشيخ محمد بن عمر البنا مفتش المحاكم الشرعية الذى ترجمنا له بين شعراء المدح بحرثية مؤثرة ، وفيها يقول<sup>(٣)</sup> :

عَينُ الكمالِ لهُولِ يومك تَدْرِفُ  
رَفَاعُ أَلويةِ العلاءِ أرى العَلاءِ  
كشأفَ غَماءِ المَظالمِ بالهدى  
يا قومُ حامى السَّرحِ أقصدُه الرَّدَى  
حجَبوا السَّناءَ عن النواظِرِ حينما  
والمجد نِرْعُدُ والشريعةُ تَرَجُفُ  
مهجورةً طرقاتها تلهفُ  
حارَ الهدى لما ثوى مَنْ يُنصِفُ  
بَكُوا له بدم القلوبِ ونزفوا  
هالوا عليك من الترابِ وأسرفوا

وهو يقول لأبيه إن عين الكمال تذرِف الدمع مداراراً لهُولِ يوم موتك ، والمجد يرعد رهبة والشريعة ترحف فرعاً لموتك ، ويخاطبه : يا رافع أَلويةِ العلاءِ والشرف أرى العلاء هُجرت طرقاتها وتلهفت متلهفة لو تراك . ويا كاشف غمة المظالم فى القضاء بنور هداك حار الهدى لما مات من ينصف المظلومين . ويلتفت الشاعر إلى قومه فيقول لهم إن الموت طعن حامى الحمى طعنة نافذة فالبكوا له بدم القلوب حتى تنزفوه وتفنوه ، ولقد حجَبوا ضياءك عن العيون حين هالوا عليك التراب وأكثروا منه . وكان يعاصر هذا الشاعر محمد سعيد العباسي ، وأنشد له صاحب كتاب الشعراء فى السودان طائفة غير قليلة من المراثي .

(٣) ديوان البنا ١٦٥/١ .

(١) ناضباً : نافدا . يخذ : يشق .

(٢) وغلاً : نذلاً . مداجيا : منافقاً

## الشيخ محمد<sup>(١)</sup> سعيد العباسي

ولد بالكوة على النيل الأبيض جنوبي الخرطوم لأبيه محمد شريف شيخ الطريقة السمائية سنة ١٢٩٨ هـ/١٨٨١ م وعُني بتربيته منذ نعومة أظفاره ، فأقرأه القرآن الكريم على مشايخ مهمين ، وحفظه ، فألحقه بأربعة شيوخ من علماء السودان لتعليمه العربية والعروض ، هم الشيوخ : عيسى الدولابي وإبراهيم الركابي ومحمد بدوي وأحمد العاقب الرطابي ، ولما أصبح كاشف حاكماً للسودان أشار على أبيه أن يلحقه بالمدرسة الحربية المصرية ، وسافر إليها سنة ١٨٩٩ للميلاد وظل بها سنتين في تلك المدرسة ، وتوثقت العلاقة بينه وبين أستاذ اللغة العربية الشيخ عثمان زنتي ، وتفتحت موهبته الشعرية حينئذ وأخذ ينظم بعض أشعار كان يعجب بها أستاذه ويشجعه ، وأحسَّ بحنين شديد لبلاده وبواديه التي كان يرتادها في غربي السودان ، وقطع دراسته وعاد إلى موطنه يوجب بواديه متمتعاً بمناظرها ويصفها في شعره مراراً وصف المفتون بها ، وبحق لاحظ الدكتور عبد المجيد عابدين في كتابه تاريخ الثقافة العربية في السودان - وكذلك الدكتور محمد إبراهيم الشوش في كتابه الشعر الحديث في السودان - تأثيرها العميق في شعره . وقد ظل وفياً لمصر باراً ومحباً ، وشعره يكتظ بها وبالعواطف الوطنية والقومية والجوانب الاجتماعية . وجميع هذه الموضوعات عند العباسي اتسعت بعد ثورة سنة ١٩٢٤ التي نجعلها فاتحة العصر الحديث في السودان ونهاية للعصر الذي نؤرخ فيه للشعر السوداني ، وقد انتقلت إلى الشاعر رياسة الطريقة السمائية الصوفية منذ وفاة أبيه سنة ١٣٢٥ هـ/١٩٠٨ م وهو جانب صوفي جدير بتتبعه ودراسته عنده . ويعد أهم شعراء هذا العصر الذي نؤرخ له من حيث دقة الخيال وجمال الصياغة . ومن قوله في رثاء أبيه :

إن الليالي ذوات الغدْرِ راعيةٌ      ختالةٌ ونفوسُ الناس مرعاها<sup>(٢)</sup>  
وكان عهدى بها تسطو على مهلي      واليوم صالت بيمنائها ويسراها  
بالسيدِّ السَّنَدِ بن السيدِّ السَّنَدِ الـ      سراقى سماءَ فخارٍ عزَّ مرقاها  
يمحضُّ الرشد للغاوى ويوضح من      مناهج الحق للفصَّاد أهداها  
أزالَ عن مشكلات العلم منطقهُ      براقع الوهم عن زاهي مُحيَّاها  
وإن تكلم في علم السلوك له      فيه عبارات ذوقٍ ما أُحْيَلها

وهو يقول إن الليالي الغدرة الخادعة دائماً ترعى نفوس الناس نفساً بعد نفس ، ويذكر

ص ٤٤ وما بعدها والفصل الثالث في كتاب الشعر الحديث في السودان : الحلقة الأولى : للدكتور محمد إبراهيم الشوش . وللعباسي ديوان ضخم باسم ديوان العباسي مطبوع بمصر .  
(٢) ختالة : غدارة .

(١) انظر الشيخ محمد سعيد العباسي وترجمته وشعره في شعراء السودان ص ٢٨٥ ونفثات اليراع ص ١٣٥ وتاريخ الثقافة العربية في السودان للدكتور عبد المجيد عابدين ص ٢٠٩ وكتاب محمد سعيد العباسي للدكتور أحمد عبد الله سامي ( طبع دار الإرشاد بالخرطوم ) وكتاب الشعر والشعراء في السودان لأحمد أبو سعد

أن عهده بها تبطش على مهل ، ويراها اليوم تصول بيسراها ويمناها على أبيه الذى كان سندا يعتمد عليه ، والذى صعد إلى سماء فخر يصعب الصعود إليها ، ويقول إنه كان يسدى النصح للضال عن الهدى ويوضح طريق الحق لقصاده الكثيرين الذين ييغون منه الرشاد ، وكان يرفع حجب الوهم عن مشكلات العلم ووجه الصواب الزاهى . أما فى التصوف والتقى فكانت له عبارات محكمة حلوة . ويكى طائفة من آبائه منشدا :

أولاك آبائى الذين يطولهم	طالت يدى وسموت من سامائى <sup>(١)</sup>
أولاك هم بصر الكمال وسمعه	وهم لأهل الفضل كالعنوان
بمعارف وعوارف قدسية	كالشمس لا تخفى على إنسان
هم صيروا نهج الهداية واضحا	للطالين قصيهم والدائى
نظروا إلى الدنيا بعين بصيرة	فتحولوا عن ذا الوجود الفانى

والعباسى يذكر أن هؤلاء الآباء الذين رثاهم بفضلهم علا شأنه وسما على من ساماه وفاخره ، ويقول إنهم بصر الكمال وسمعه ، وهم كالعنوان لأهل الفضل بمعارفهم العلمية وعوارفهم القدسية وهم كالشمس لا يخفى فضلهم على أحد ، وقد صيروا طريق الهداية واضحا للناس البعيد منهم والقريب وقد نظروا إلى دنياهم بعين بصيرة فازدروها وتحولوا عن دار الفانية إلى دار الخلود . ويقول فى رثاء أستاذه الشيخ محمد البدوى مؤثنا :

كشف النقاب عن العلوم فرقها	خودا تفوق على الحسان الخرد <sup>(٢)</sup>
من للعلوم جميعها ولفقه ما	لك والحديث صحيحه والمسندي
وبيانها وبديعها وأصولها	فى منطق وعويصها المتعقد
إنى أعزى كل أمة أحمد	بمصيبة الخير الإمام محمد
وعليك يا دنيا السلام فقد خوت	شمس الكمال وغاب بدر السوود <sup>(٣)</sup>

وهو يوضح مدى الخسارة العلمية فى أستاذه فقد رفع الحجاب عن العلوم وزفها إلى تلاميذه كفتاة جميلة تفوق فى جمالها الحسان المتلألآت الفاتنات ، ويقول من يحل محله للفقه والحديث النبوى ولعلوم البيان والبديع والأصول وتذليل العويص والمشكل فيها . ويعزى الأمة الإسلامية فى مصيبتها به ، ويقول : على الدنيا السلام فقد هوت شمس الكمال وغاب بدر المجد والشرف .

### (ب) رثاء المدن

عرف الشعر العربى رثاء المدن منذ رمى عبد الله بن طاهر قائد المأمون بغداد بالمجانيق

(١) طول: فضل : طالت : علت وارتفعت . ساماه : فاخره .

(٢) الخود : الفتاة الجميلة . الخرد جمع خريدة : (٣) خوى : هوى وسقط .

واشتعلت بها النيران والحرائق فقد رثاها غير شاعر ، ورثى ابن الرومي البصرة حين نكل بها الزنج ، وأكثر الأندلسيون من رثاء مدنها حين سقوطها في حجور الإسبان ، ورثى ابن رشيق وابن شرف القيروان حين أغارت عليها قبائل الأعراب من بني هلال وسليم في أواسط القرن الخامس الهجري وخرقتها . ولم يحدث شيء من ذلك لمدينة في السودان ، إنما حدثت أحيانا أمطار وسيول هدمت مباني بعض المدن وأصبحت كثرة أهلها في العراء سوى من مات منهم وجرفته السيول . ومديتان حدثت لهما هذه النكبة المروعة هما عطبرة وأم درمان . وكانت نكبة عطبرة سنة ١٩٢١ للميلاد أشد هولا ، فقد انقضت بها كثرة من المنازل ، وعمّ البؤس كثيرا من الأسر ، ومن رثاها مستصرخا للناس أن يمدوا أهلها بالعون والمساعدات عبد الله كردى ، وفيها يقول<sup>(١)</sup> :

يا آلَ عَطْبِرَةَ تعهدْ حَيْكُم  
جَرَفَ المنازلَ ثم طَوَّحَ بعضُها  
لَهْفَى على دورِ هَوَى بِنائِها  
لَهْفَى على تلك العروشِ فإِناها  
لَهْفَى على مالِ غَرِيقِ رَبِّه  
يا معشر الكرماء هل من رحمة  
إِن تُنْفِقُوا فالفضل لا يُنسى لكم  
والله يَجْزِيكم ومن يُجْزَى غَدًا  
وَيْلٌ بساريةِ الدموعِ هَطُولُ<sup>(٢)</sup>  
فإذا بها فوق الفضاءِ طُلُولُ  
بالأُمسِ فيه لساكنيه حلولُ  
طاحتْ وأقوى رَبُّعُها المأهولُ<sup>(٣)</sup>  
متجلدٌ وفؤاده متبولُ<sup>(٤)</sup>  
إِنَّ الضعيفَ لفضلكم موكل  
أبداً ويحمدكم عليه الجيلُ  
عن صالحٍ فصنيعُه مقبول

وهو يقول لأهل عطبرة إن منازلكم تعهدا ونزل بها خطب عظيم إذ ظلت ساريات الليل وسحبه تصب عليها سيول المطر التي جرفتها ، وطوّحت بها في الفضاء من حولها ، وأصبحت تلك المنازل طلولاً خربة ، بعد أن كانت عامرة بأهلها . واحسرتاه على تلك الدور التي خر بنائها وتلك العروش التي تداعت وأقفرت من سكانها ، والأموال التي غرقت في السيول أمام أعين أصحابها ، وهم متجلدون ذاهلون . ويسترحم الكرام لهؤلاء الضعفاء البؤساء ، ويقول لهم إن كل ماتوا سونهم به وتفنقونه لن يُنسى لكم أبداً ، وسيظل هذا الجيل يحفظه لكم ويحمدكم عليه ، والله يجزيكم خير الجزاء لهذا العمل البارّ الذي لا شك في أنه عمل صالح ، وسيقبله الله منكم . وتنزل بأم دورمان سيول كاسحة ويرثها مدثر اليوشى ، ومن قوله<sup>(٥)</sup> :

(١) شعراء السودان ص ١٨١ .

(٢) ويل : مطر . سارية السحابة ليلا . هطول : شديد .

(٣) طاحت : ترامت : أقوى : أقفر .

(٤) متبول : مذبول .

(٥) شعراء السودان ص ٣٣٨ .

هَمَرَ الرُّكَّامُ فَسَامَ أَزْهَارَ الرَّبِيِّ      خَسَفًا وَعَاثَ بَرُوضَةَ وَوَهَادٍ<sup>(١)</sup>  
 تُذْرَى الدَّمَاءُ عَلَى الْخُدُودِ أَرَامِلٌ      يَنْدِبْنَ خَشِيَةَ ضَيْعَةِ الْأَوْلَادِ<sup>(٢)</sup>  
 عَبَسَ الزَّمَانُ بُوْجْهَهُمْ فَأَذَاقَهُمْ      مَا لَمْ يُذْقه مَكْبَلُ الْأَصْفَادِ<sup>(٣)</sup>  
 مَنْ ذَا يُسْرِى هَمَّهُمْ وَيَرْجِئُهُمْ      مِنْ نَقْمَةِ طَرَقَتُهُمْ وَعَوَادِي<sup>(٤)</sup>  
 فَالغَيْثُ قَدْ أَخْطَأَ وَمَا يَدْرَى أَبَا      لِأَرْضِ السُّوَيْةِ سَالِ أُمِّ الْوَادِي  
 لَكِنَّهُ حُمَّ الْقَضَاءِ لَتَعْلَمُوا      أَنْ الْحَيَاةَ مَعُونَةٌ وَأَيَادِي<sup>(٥)</sup>

ومدثر يذكر أن ركام المطر اتهمر اتهمارا شديدا فأنزل بأزهار الربى خسفا وهوانا وعاث  
 فسادا بالرياض والوهاد ، وسالت دموع الأرامل دماء على خدودها يندبن ويكبن خوفا من  
 ضيعة الأولاد . ويقول إن الزمان عبس وتجهم فى وجوههم فأذاقهم من ضنك العيش ما لم  
 يذقه المكبل بالأغلال ، ويهتف الشاعر فى الناس : من ذا يزيل همومهم ويريجهم من عذاب  
 هذه الكارثة التى نزلت بهم ومن عوادى الدهر ونوائبه ، ويذكر أن الغيث أخطأ ، وسقط  
 دون أن يدرى أيسقط على أم درمان أو على واد من الوديان ، ويهتف فى قومه : لقد حُمَّ  
 القضاء وقُدِّر ، لتعلموا أن الحياة معونة نومن سابعة ، فواجب عليكم أن تسعفوا أهل أم  
 درمان أشقاءكم ، وتعينوهم بالمتن والنعم الوافرة .

(١) الأصفاد : الأغلال والقيود .  
 (٤) يسرى : يزيل . عوادى : نوائب الزمن وكوارثه .  
 (٥) حم : قضى وقدر .

(١) ركام المطر : ما تراكم منه . سامه خسفا : أنزل به  
 هوانا .  
 (٢) تدرى : تُسبل .  
 (٣) عبس : تجهم . مكبل : من كبله أى قيده .

## الفصل الرابع

### طوائف من الشعراء

١

#### شعراء الغزل العفيف

مر بنا فى الجزء الخاص بالعصر الإسلامى أن الغزل حيثُذ كان نوعين : نوعا ماديا صريحا ونوعا عذريا عفيفا ، وشاع النوع الأول فى المدن التى تحضرت على لسان عمر بن أبى ربيعة وأضرابه ، بينما شاع النوع الثانى فى بوادى نجد والحجاز وعلى لسان فقهاء المدينة من أمثال عبد الرحمن بن أبى عمار الجشمى . ولم يعرف السودان النوع الأول الصريح الذى يصور جمال المرأة المادى وحب الشاعر الحضرى وأحاسيسه وصدوره فيه أحيانا عن الغريزة النوعية ، إنما عرف الغزل العذرى النقى الطاهر على لسان بعض شيوخه وألسنة شبابه ، لأن حياتهم كانت تقوم دائما على الخلق الكريم ومثالية الإسلام السامية . ونسوق بعض أمثلة توضح ذلك ، مع ملاحظة أن كثيرا من هذا الغزل كان ينظم فى فواتح قصائد المديح وغيره أسوة بالشعراء القدماء ، على نحو ما نجد عند الشيخ عمر الأزهرى المتوفى سنة ١٩١٥ للميلاد فى افتتاحه لنبوياته كقوله فى مطلع إحداها<sup>(١)</sup> :

بادِ هواهُ وزائِدٌ خَفَقَانُهُ      صَبٌّ تَفَرَّقَ بِالنَّوَى أَخْدَانُهُ<sup>(٢)</sup>

قد خانته حسنُ التصبُّ بعدما      باتوا ووقتُ بالبكا أجفانُهُ

عجبا لربِّعٍ باللَّوى لعبتْ بهِ      أيدى النَّوى فتفرقتْ سَكَانُهُ

ياظاعنا يطوى الفلا رفقا      فإِنَّ الرُّكبَ ضلَّ من السُّرى وخدانُهُ<sup>(٣)</sup>

وقفِ المطى ولو كلمحةً ناظرٍ      فعسى المعنى تنطفى نيرانه

وارحمْ محباً صدَّره ضاقتْ بهِ      أسرارُهُ وتزايدتْ أشجانُهُ

وهو يذكر أن علامات الهوى من الشحوب والضنا واضحة عليه وخفقان قلبه مفرط ، إنه محب ، شئت النوى والبعاد أصدقاؤه ، ولم يعد يستطيع صبرا بعد نأيهم وفراقهم وقد انهمرت الدموع من أجفانه ، ويعجب لعبث أيدى الفراق بسكان ربع باللوى : ربع الحبيبة ، ويهتف بالراحل مع ركبهِ يطوى الفيافي أن يرفق به فإن الركب ضل فى الليل بسيره السريع ،

(٣) الوخدان : ضرب من سير الابل السريع

(١) شعراء السودان ص ٢٥٢ .

(٢) أخدانه جمع خدن : الصديق .

ويقول له قف المطىّ ولو لمحة ليتملّى بجمال صاحبه ، عسى نيران الحب المشتعلة فى فؤاده تنظنيء ، ويسأله الرحمة بمحب ازدحمت فى صدره أسرار الهوى وشجونه . وللشيخ محمد عمر البنا فى صدر مدحة قوله متغزلاً<sup>(١)</sup> :

أبدًا يورثنى عبيرُ شذاكِ      ويزيدنى قلقاً دوامُ جفالكِ  
ويردنى من حالة العقلا إلى      حال الخبال تذلى وياكِ  
ويزيدنا طرباً وحسنَ مسرةٍ      برقٌ تألق من ضياء سنالكِ  
يا ربةَ الحسنِ الذى فتنَ الورى      أكذا يكون جراءُ من يهواكِ  
عذبتي بالصدِّ والمجران ما      ذنبى سوى أنى أرومُ لِقالكِ

والشيخ محمد عمر البنا يقول إنه دائماً مؤرق ، يورقه طيب عطر صاحبه وانتشاره ، ويزيده قلقاً وحيرة دوام جفائها ، ويكاد يختبل عقله من كثرة تذللها لها وشدة إياها ، وإنه ليسره ويطربه شعاع برق يتألق من ضياء نورها ، ويضرع لها قائلاً : ياربة الحسن الذى فنتت به الناس أهلكذا تجزين من يحبك ، لقد عذبتنى بالصد والمجران ولا ذنب لى سوى أنى أريد لقاءك لأروى الظمأ الحار إلى هذا اللقاء . ويلقانا معاصره الشيخ أبو القاسم أحمد هاشم وسنفرد له ترجمة ، ويقول الشيخ مجذوب جلال الدين المدرس بالقسم الثانوى بكلية غردون متغزلاً<sup>(٢)</sup> :

ملك النهى والملكُ بعضُ صفاته      ريمٌ أغنُ يتيه بين لداته<sup>(٣)</sup>  
رشاً شداً فزعا لأنى رُعته      إذ جتته وفزعتُ من لفتاته<sup>(٤)</sup>  
نشوانٌ من خمر الدلال حسبته      هاروت كل السحر فى لحظاته  
وسنانٌ كاملٌ يقظةً لكنه      كسر الجفون لكسر قلب دعائه  
كسلانٌ أنشطُ من رأيت إذا أحـ      س بهائم متعشق لصفاته  
ضمتُ جوانحه اللطيفة صخرةً      هى قلبه هيهات لى صفاته<sup>(٥)</sup>  
يا نرجساً يسقى لروض حدوده      كفكف لنجنى الورد من ثمراته

والشيخ مجذوب يقول عن صاحبه إنها ظلى فى صوته غنة يتيه دلالاتاً وجمالاً بين لداته ، إنها ظلى لا يزال صغيراً ، ترنم بصوته فزعا لأنه خاف حين رأتى ، ودعرت من كثرة لفتاته ، وحسبته منتشياً من خمر الدلال كأنه هاروت وكل السحر فى لحظاته . ويرى كأنه وسنان لفتور عينية وهو كامل اليقظة ، وكأنما كسر جفونه - كما يقول - لكسر قلوب محبيه ، ويظن أن به كسلان وهو أنشط ما يكون إذ ار أى صباً عاشقاً له ، وقد ضم بين جوانحه قلباً كأنه

(٤) رشاً : ظلى صغير . شدا : ترنم .

(٥) الصفاة : حجر أملس عريض .

(١) شعراء السودان ص ٢٨١ .

(٢) شعراء السودان ص ٢٦٥ .

(٣) ريم : ظلى . أغن : بصوته غنة . لداته : أترابه .

صخرة أو صفاة أو حجر لا يلين أبدا . ويُذرى الدَّمع كأنما يريد أن يسقى روض حدوده ، ويقول له قف الدمع لنجنى الورد من روض الحدود البديع . ويقول صالح<sup>(١)</sup> عبد القادر :

وغزال همتُ فيه أسهرَ العينَ وناما  
ما كفاهَ الحجرُ حتى حرَمَ العينَ المناما  
هو عمدا نكثَ العهدَ سدَ ولم يرعَ الذمَّاما  
لا تلوَموا ذا شجونٍ سنَ للناسِ الغراما  
كلما ناح اشتياقًا علِمَ النَّوحَ الحماما

وصالح عبد القادر هام بغزال أسهره ، وكأنما لم يكفه الحجران ، فحرم عينيه النوم ، وقد نقض العهد ولم يرع الذمام والميثاق ، ويقول لقومه لا تلوَموا محبا شرع للناس سنن الحب وكلما ناح اشتياقا وولعا وهياما خيّل إلى سامعه كأنما هو الذى علم الحمام النوح والعويل . ويقول عثمان هاشم متغزلا<sup>(٢)</sup> :

يا ظيبي هل لأسيرٍ لحظك فادى أم لافكالك له من الأصفا<sup>(٣)</sup>  
جرّدت من لحظيك عَضبا فاتكا وهزرتَه ففتكتَ بالأساد<sup>(٤)</sup>  
نلتَ المنى فى الحسن أنت ولم أتلُ من طيبٍ وصلك بُغيتى ومرادى  
لولا الحياءُ لقادنى لك فى الدجى شوقٌ أذاب حُشاشتى وفوآدى<sup>(٥)</sup>

وهو يسأل صاحبه هل يوجد من يفدى أسيرا لعينيك الجميلتين أم لا خلاص له من أغلال هذا الأسر وقبوده ، ويقول : لقد سللت من عينك سيفا قاطعا ، وفتكت بالأسد الشجاع ، ولقد نلت فى الحسن كل ما تمنيت ، ولم أتل شيئا من طيب وصلك ، ولولا حيائى لقادنى إليك فى الليل شوق أذاب سنى الحشاشة والفؤاد . ويقول الشيخ محمد سعيد العباسي<sup>(٦)</sup> :

بالله يا حلّو اللما مالك تجفوَ مُغرَما<sup>(٧)</sup>  
صددت عنى ظالمنا أفديك يا من ظلّما  
هلا ذكرتَ يا رَشنا عيشنا تقضى بالحِمى  
رفقا بصب راح يَهى سوى طيفك المسلما  
إن شامَ من نحوكم برقا أقام ماتما<sup>(٨)</sup>  
ويكتم الوجَدَ وكم يغلبُه أن يكتمَا

(١) شعراء السودان ص ١٤٩ .

(٢) شعراء السودان ص ٢٢١ .

(٣) الأصفاة : الأغلال .

(٤) جردت: سللت. عضبا: سيفاحادا. فاتكا : قاطعا .

(٥) حشاشتى : بقية روحى .

(٦) نثقات البراع ص ١٣٦ وشعراء السودان ص ٢٩٥

وكتاب محمد سعيد العباسي ص ١٩٧ وراجع ديوانه .

(٧) اللما : سمة فى الشفة .

(٨) شام : رأى .

والغزل عذب رقيق رقة مفرطة ، وهو يستهله باستحلافه لخلو اللما أو سمره الشفة ماله  
يجفو صباً مغرماً به . ومع أنه يصد عنه ظالماً يفديه بروحه ، ويذكره بعيش وأيام مرت بالحمى ،  
ويقول له : ارفق بصب ، لم يعد له إلا طيفك في الحلم يهواه ، وإن رأى برقاً لمع من أفقكم  
ندب وبكى طويلاً ، ويحكم الوجد والهيام وكم يغلبه كتمانته . ويمضى في القصيدة منشداً :

لله محبوبٌ رأى حبةً قلبى فرمى  
أعيذهُ من جائرٍ حكمتُهُ فاحتكما<sup>(١)</sup>  
لقيتهُ فى أربعٍ ييضُ كأمثالِ الدُّما  
شابهنَ أزهارَ الربيعِ وحكينَ الأنجما  
وقفتُ فاستسقيتهُ وشدُّ ما بي من ظمأ  
جاء بماءٍ قلت هل حاجةٌ مثلى منك ما<sup>(٢)</sup>

وهو يشكو محبوبه لربه فقد أبصر سويداء قلبه وفؤاده فرماه ، ويعيذه أن يكون ظالماً فقد  
حكّمه فتصرف حسب هواه ومشيئته . ويقول إنه لقيها فى أربع جميلات من حولها كأمثال  
الدُّمى البديعة ، شابهنَ أزهار الربيع العاطرة والأنجم الساطعة ، وطلب منها جرعة ماء تشفى  
ظمأه ، وجاءته بالماء ، فقال لها مداعباً : وهل حاجة الصبِّ المغرم مثلى منك إلى ماء ؟ ! . وهو  
يسترسل فى القصيدة من هذا الحب للفتاة إلى حبه لمصر التى قضى فيها فترة من شبابه ،  
فملكته عليه ذات نفسه ، وظل يمجدها ويتغنى بها غناء حاراً طوال حياته فى أشعاره وقصائده  
الرائعة . وتتوقف قليلاً لترجم للشيخ الجليل أبى القاسم أحمد هاشم ، ونعرض بعض غزلياته  
العفيفة الطاهرة .

### الشيخ أبو القاسم<sup>(٣)</sup> أحمد هاشم وغزله العذرى العفيف

ولد فى « برى » إحدى ضواحي الخرطوم سنة ١٢٨٧ هـ / ١٨٦١ م وهو من بيت شيوخ  
دين وقضاة ينتمون إلى العباس بن عبد المطلب ، وألحقه أبوه الشيخ أحمد هاشم بقراء حفظه  
القرآن الكريم ، وحفظه وهو فى العاشرة من عمره ، وانتقل أبوه إلى بربر قاضياً لمديريتها ،  
وألحقه بمدريستها ، حتى إذا اشتد عوده قليلاً أخذ يدرس العلوم الدينية واللغوية على أستاذه  
الشيخ محمد الخير عبد الله ، ثم على أستاذه الحسنى السيد حسين المجدى الأزهرى ، وعليه  
درس النحو وكتاب جمع الجوامع فى الأصول . حتى إذا نضج علمياً عُيِّن مدرساً بجامع بربر  
واستولى عليها المهدي فقرأ به منه واتخذة كاتباً له ، وبالمثل اتخذه خليفته عبدالله التعايشى ،

ص ٣١ وما بعدها والشعر الحديث فى السودان للدكتور

الشوش ص ١٧ .

(١) احتكم هنا : تصرف كما يشاء .

(٢) ما : ماء .

(٣) انظر فى ترجمة أبى القاسم وشعره شعراء السودان

حتى إذا سقطت الدعوة المهدية وقام الحكم الثنائي المصري الإنجليزى بالسودان عين قاضيا لمدينة سنار سنة ١٨٩٩ للميلاد . وفى سنة ١٩٠٦ نقل إلى مديرية النيل الأزرق قاضيا ، ولمكائته العلمية وسيرته الحميدة عين سنة ١٩١٢ شيخا لعلماء السودان ، وأقنع الحكومة ببناء مسجد جديد فى أم درمان وبناء معهد دينى يلحق به ، وكان المعهد قد أنشئ منذ سنة ١٩٠١ فى جامع أم درمان لتدريس العلوم الدينية ، فجعل له مبنى مستقلا ، وجعل نظام التدريس فيه مثل نظام الأزهر ، فالطلاب يختلفون فيه إلى ثلاث مراحل ، كل مرحلة أربع سنوات ، وفى السنة الأخيرة ينالون شهادة العالمية ، وكان ذلك عملا جليلا للشيخ أبى القاسم ، إذ بدأ به نهضة علمية دينية فى السودان ، وظل يتعهده نحو عشرين عاما إلى وفاته . وكان شاعرا بارعا ، وله غزليات عذرية عفيفة تارة يفردها وتارة يجعلها مقدمة لمدائحه النبوية ، ومن مقدماته لإحدى تلك المدائح قوله :

ليلي بدتْ لما أضَاءَ الكوكبُ      فمحتْ ضيَاءَهُ وزالَ عِنا الغَيْهَبُ<sup>(١)</sup>  
 واستقبلتْ قمرَ الزمانِ فناله      من حسنِها الكَلْفُ الذى لا يذهبُ<sup>(٢)</sup>  
 وتفردتْ فى حُسْنِها ودلالِها      وحتوتْ من الأوصافِ ما يُستغربُ  
 فتزاحمتْ عشاقُ حَسَنِ جمالِها      كلُّ لحسنِ وصالِها يتطلَّبُ  
 والعشقُ صعبٌ لا يطيقُ صُروفَهُ      إلا الذى لعذابهِ يَسْتَعذِبُ

والشيخ أبو القاسم يقول لما بدا ضياء وجه ليلي محاضيا الكوكب لأنه أشد منه سطوعا ، واستقبلت القمر فناله من حسنها - خفرا وحياء - غضون لا تفارق وجهه أبدا . ويقول إنها انفردت بحسنها ودلالها وحتوت من أوصاف الجمال ما يخال مستغربا ، فتزاحمت عشاقها وكل يمتنى الوصال ، والعشق - بحق - صعب ، ولا يطيق أحواله وآلامه إلا من يجد عذابه مستعذبا حلوا . ويقول متغزلا :

فتورٌ بَجَفْنِي من أحبِّ سباني      وتوريدُ خديهِ استطارَ جَنَانِي<sup>(٤)</sup>  
 ورقةٌ خَصِرٌ واحتشامٌ شمائلي      حكمنَ بأسْرِي وأستننَّ هوائِي  
 وإن الهوى العذريُّ أيسرُ حاله      توقُّدُ نيرانٍ بغيرِ دخانِ  
 وإنِّي مذ عُلقتُ ليلي بخاطري      جفيتُ منامِي وافتقدتُ الأمانِي  
 سلاها فهل قلبى سلاها وهل جرى      حديثٌ سواها فى فمي ولساني

وهو يذكر أن الفتور بجفنى محبوبته أسره ، وتوريد خديها أذهله وأطار عقله ، وبالمثل رقة الخصر وحسن الخلال ، كل ذلك حكم عليه بالأسر واستنن هوانه . وما أشد الهوى العذرى

(١) الغيب : الظلام .

(٢) كلف القمر : ما يرى على سطحه من بعض

التغيرات .

(٤) استطار : أطار ، أذهل . الجنان : العقل .

إن أيسر أحواله توقد نيرانه فى الصدر والفؤاد ، وإته مذ أحب ليلى جفاه النوم وفقد كل أماتيه  
إلا أمنية وصالها ، وأسألها هل سلاها قلبى وهل نطق فمى ولسانى بحديث سواها ، إنها كل  
شغلى فى الحياة . ويقول :

بسمت عن دُرِّ ثَغْرِ مستين  
وبدت للورد فى خدِّ نضيب  
وأملت قدها فالبان فى  
ورمت باللحظ منى فأصا  
فتراهم من جراحات اللوا  
هكذا من يعشق الخود الحسا  
وكأن الله قد صورها  
منع البدر ضيابه أن بين  
سر فراح الورد مصفر الجبين  
خجلة يضحك منها الياسين  
بت به حب قلوب العاشقين  
حظ ما بين قتيلى وطعين  
ن يذق مر الهوى عذبا معين<sup>(١)</sup>  
من هوى الأنفس لا ماء وطن

فصاحبه أو محبوبته بسمت عن لآلىء ثغر واضح منع ضياء البدر أن بين ، وبدا للورد  
خدها الناضر فصار مصفر الجبين حياء وخجلا ، وأملت قدها المشوق فخجل شجر البان  
المشهور بقده الجميل خجلا يضحك منه الياسين ، ورمت بسهام لحظها فأصابت به أفدة  
العاشقين ، فتراهم من جراح السهام ما بين قتيلى وجريح طعين . وهكذا من يعشق الفاتنات  
الحسان يذق مر الهوى ، ويصبح فى فمه عذبا سائغا ، وكأن الله صورها من هوى الأنفس  
ومحبتها لا من ماء وطن كخيرها من البشر ، إنها ملاك إنسى . ويقول متغزلا :

تجننى على مقتوله وتجرما  
وما حيلتى والقلب أسر لحاظها  
فإن أقبلت فالجنة الخلد نزله  
فكيف خلاصى يا رفاقى ودأبها الـ  
وإن قلت إني صادق الود والوفا  
وحزت لأنى لم أجد من غنا الهوى  
وحسبى أن أخطى بطيف خيالها  
أشأن غزال الحسن أن يهدر الدما  
ومهما رنت مال الضمير مسلما  
وإن أعرضت قد حل نزل جهنما<sup>(٢)</sup>  
صدود وركن الصبر منى تهدما  
تقول ألا مت فى صدودى متما  
خلاصا فأنجو أو إلى الوصل سلما  
إذا هى لم تسمح بوصلى تكرما

والشيخ أبو القاسم يذكر أن صاحبه تجنت على قتيلاها بسهام عينها ، وهل ذلك شأن  
الغزال الجميل أن يهدر الدماء ، ويقول ما حيلتى وقد أسرت القلب بلحاظها ، والضمير دائما  
مسلم لها مستسلم ، وإن هى أقبلت أحسن القلب كأنه فى منزل من منازل الجنة ، وإن هى  
أعرضت أحسن كأنه فى منزل من منازل الجحيم ، فكيف خلاصه ودأبها دائما الصدود

(٢) نزل : نزل .

(١) معين : سائغ .

والهجران وقد تهدم منه ركن الصبر الجميل ؟ . وإن قال لها ضارعا إني صادق الحب والوفا قالت له : مت فى هجراني متيما بي عاشقا ، وحاراً لأنه لم يجد خلاصا من شقائه بجبها ولا طريقا إلى وصلها ، ويعود إلى نفسه قائلا : حسبي أن أحظى بطيف خيالها فى الحلم ، مادامت لا تسمح بوصولها كرما وعظفا على العاشق الولهان . وغزليات الشيخ أبى القاسم - كما رأينا - سلسلة عذبة . وهى غزليات حب عذرى عنيف نقى سام ، فى لغة سهلة وموسيقى وافرة حلوة .

## ٢

شعراء النقد العنيف والشكوى من الزمن  
أخذ الشباب السوداني الطامح فى الربيع الأول من القرن الحاضر يشعر شعورا عميقا بالآلام التى تعيشها أمته وأتقالها ، واقرن ذلك فى نفسه بياس من أن تتحقق آماله ، وبذلك اجتمع عليه الإحساس بمرارة حياته ، والإحساس بمرارة حياة أمته ، أما مرارة حياته فقد عبر عنها الشاعر السوداني بشكوى طويلة من الزمن ، وأما مرارة حياة أمته فقد عبر عنها بنقد صارخ صور فيه قعودها عن المطالبة بحقوقها ، وهو تارة يعرض على الشباب مجد آباءه الأولين لعله يحاكيهم ويسترد شيئا من مجدهم ، وتارة ثانية يعرض عليه عيوبه الاجتماعية والأخلاقية كى يتخلص منها ويسترد كرامته ومكانته الخليفة به ، ومن يتردد على لسانهم اللوان من النقد والشكوى من الزمن محمود أنيس المولود سنة ١٨٩٣ للميلاد ، إذ ينشد فى حفل للمولد النبوى سنة ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م قوله فى مدحة نبوية<sup>(١)</sup> :

زُرِعَ الجفَاءُ بنا وأثمر غرسه	فتنافر الأبناء والآباء
وتفاخرت بالمويقات صفارنا	وشيوخنا فهزأ بنا الأعداء
وتسائلت منا النفوسُ حزينة	جرّحى ونال جميعنا الإعياء
وأما على الإسلام ماذا نابيه	وهو الشفاء وما سواه شفاء

وهو يقول إن الجفاء غرس بيننا جميعا وتنافرنا حتى لقد تنافر الأبناء والآباء ، وأعجب العجب أن يفاخر الشباب والشيوخ باقتراف المحرمات مما جعل الأعداء تهزأ بنا هزأ شديدا ، وإننا ليشملنا حزن بالغ حتى لكأننا جرّحى ، بل لقد نالنا جميعا الإعياء ، فواحسرتنا على الإسلام ماذا أصابه ، وهو الشفاء والبلمس لكل النفوس . وعلى نفس هذه القيثارة يقول عبد الرحمن شوقى فى ذكرى الهجرة بالسنة التالية<sup>(٢)</sup> :

(١) شعراء السودان ص ٣٢٥ .  
وراجع حديث الدكتور الشوش عن الشاعر فى كتابه  
الشعر الحديث فى السودان .

(٢) نغمت اليراع ص ١٨٤ وشعراء السودان ص ٢٠٤ .

تبيتُ على الهمِّ الممضُ نفوسنا  
 ننامُ وملءُ العينُ همُّ وحسرةُ  
 فياليت شعري هل أرى النيلَ جارياً  
 وهل سأرى يوماً عن الغابِ أسدُّهُ  
 وهل يُرتجى الإصلاحُ والشعبُ نائمٌ  
 ولمْ لا أرى ما بيننا غيرَ صامتٍ  
 وتمشى على جَمْرٍ من الذلِّ أُضرمًا  
 وأُعِيننا حزنًا تفيضُ لنا دما  
 طليقًا كدمعى إذ يسيلُ مُعندما<sup>(١)</sup>  
 تذودُ إذا ما الليلُ فى الغابِ أظلما  
 وهل يبلغُ الآمالُ من كان نائمًا  
 وقد آن للأحجار أن تتكلَّمَا

ونفس عبد الرحمن شوقى ونفوس أمثاله من أبناء وطنه تبيت مسهدة على هم مؤلم غاية الألم ، وكأنما إذا مشت تمشى على جمر مشتعل من الذل ، وإذا ناموا ينامون وعيونهم ملامى بالهموم والحسرات على وطنهم مكنتة حزنًا لا بالدموع ولكن بدماء القلوب والأفئدة . ويتساءل هل سيرى أهل النيل طلقاء من الأسر ، والنيل يجرى عملاً بذهب الطمى الأحمر كعادته ، وهل سيدود أسد الغاب عن عرينه الذى خيم عليه الظلام . وغمره اليأس ، فالشعب نائم ، والنائم لا يبلغ أملاً من آماله ، ويعجب لصمت من حوله من أهل السودان بينما توشك الأحجار الخرساء على النطق بآمال الشعب وأمانيه . ويصرخ فى قصيدة ثانية<sup>(٢)</sup> :

مضى زمانٌ وقلبي ممتلئُ المأْمِ  
 وفى فؤادى أسى كالنار مضطرباً  
 حزنًا على أمةٍ بالنيل نائمةٍ  
 تشكو الأوار وأخشى أن تموت ظمًا

فقد مر به زمان طويل وقلبه مكتئب بالألم وفؤاده ملىء بلواعج أسى مشتعل كالنار الحامية حزنًا على أمتة النائمة فى وديان النيل تشكو حرارة العطش ولهبه المتقد ، ويشفق لها الشاعر شفقة حزينة إذ يخشى عليها من الموت ظمًا والماء مدّ أيديها وتحت أبصارها . ومثل هذا النقد العنيف كثير فى الشعر السودانى وستترجم فيه للشيخ عبدالله محمد عمر البنا بعد قليل . ويقول الشيخ حسيب داعيا عناصر الأمة السودانية إلى وقف ما بينها من تناحر شديد<sup>(٣)</sup> :

الإتحادُ هو الحياةُ وإنما  
 كم أمةٍ نهضتُ به فتمتعت  
 ولكم ترمى من قوَّةٍ وممالكٍ  
 تلك الشعوبُ ترومُ جَمْعَ شتاتها  
 إني سئمتُ النُصْحَ غيرَ مؤثِّرٍ  
 موتُ الشعوبِ تفرِّقُ الأفرادِ  
 بحياتها من بعد ما استعبادِ  
 نزل الشقاقُ بها لشرِّ مهادِ  
 وهنا نبيعُ الجَمْعَ بالآحادِ  
 وعتابَ قومٍ فى سِناتِ رقادِ

وهو يدعو قومه السودانين إلى الاتحاد ، ويقول إن الشعوب لا تحيا بدونه إذ بدونه تفقد حياتها وتموت إلى الأبد ، وكَم من أمةٍ نهضت بالاتحاد فاستمعت بحياتها لتخلصها من نير

(١) شعراء السودان ص ١٢٣ وانظر ترجمته عند الدكتور الشوش فى كتابه الشعر الحديث فى السودان ص ١١٥ .

(٢) نقثات البراع ص ١٨٧ وشعراء السودان ص ٢٠٤ .

الاستعباد ، وكم من ممالك حدث بين أهلها الشقاق فوقعت في شر أعمالها ، ولذلك تعمل جميع الشعوب على الاتحاد الدائم بين أبنائها ، بينما نحن ننقسم ونتفرق . ولقد سئمت تقديم نصحي لأمتي إذ أراه غير مؤثر ، وكأني أنصح وأعاتب قوماً نياما . ويقول شاكيا من الزمن وهمومه وتناوبها له همًا من وراء هم<sup>(١)</sup> :

أَلْفَ الْمَهْمومِ برغده وَالْفَنهُ  
فَعَدَا بَوَادِ وَالسُّرورُ بَوَادِي  
لَا تَسْتَقِرُّ رِكَابُهُ فِي بَلَدَةٍ  
حَتَّى يِنَادِي بِالرَّحِيلِ مُنَادِي  
وَكَأَنِّي كِرَّةٌ وَدَهْرِي لَاعِبٌ  
يَرْمِي بِهَا الْحَدَثَانِ بِاسْتِبْدَادِ  
لِيَصِيبَهَا بِي بَلٍ بِهَا لِيَصِينِي  
وَالدَّهْرُ أَرْمِي لَاعِبٌ وَمُعَادِ  
لَكِنَّهُ مَهْمَا ارْتَقَى لَا يَرْتَقَى  
لَيْسَالٍ مِنْ صَبْرِي بِذَا الْإِسَادِ<sup>(٢)</sup>  
إِنْ شَابَ رَأْسِي بِالْخَطُوبِ فَلَمْ يَشِبْ  
عَزَمِي الْفَتَى وَلَا ذَكِي فَوَادِي

وكان الشيخ حسيب، قد وُظف كاتباً في المحاكم الشرعية ، وكان رؤسائه ينقلونه من محكمة إلى أخرى في أنحاء السودان . وهو يقول إنه أصبح - منذ توظف - ترباً للهموم يألفها وتألفه ، وفارقه السرور ، وكأنا غدا بوادٍ والسرور بوادٍ آخر . ويشكو من كثرة تنقلاته في وظيفته ، فلا يكاد يستقر في بلدة حتى يؤمر بمبارحتها إلى بلدة أخرى ، وكأنا أصبح كرة يلعب بها الزمان ، ويرمي بالنواب والأحداث ليصيبها بي ، بل ليصينني بها ، والدهر أرمي لاعبٍ ومُعَادٍ ، ولكنه مهما صنع ومهما رماني ليلاً أو نهاراً فلن ينال من صبري ، وحتى لو شاب رأسي لما ينزل بي من خطوب فلن يشيب عزمي القوي ولا فوادي الذكي . وله قصيدة يشكو فيها من مرتبه الضعيل ساخرًا ، وفيها يقول مخاطباً لمرتبته<sup>(٣)</sup> :

أَمْرَبِي مَالِي أَرَا  
ك قَصُرَتْ عَنِ نَيْلِ الْمَرَادِ  
أَشْكُوكَ أَمْ أَشْكُوكَ إِلَيَّ  
ك نَوَازِلَ الْخَنِّ الشَّدَادِ  
الْحَبِيبُ خَالَ أَيْضُ  
وَبِيَاضِهِ عَيْنِ السَّوَادِ  
إِنْ رَمْتُ صَبْرًا عَزَنِي  
وَأَمْضَيْتُ طَوْلَ السُّهَادِ<sup>(٤)</sup>  
أَوْ رُمْتُ قَرَضًا رَدَّنِي  
عَنْه الْحِيَاءُ مِنَ الْعِبَادِ  
أَوْ هَكَذَا حَظُّ الْأَلِيِّ  
طَلَبُوا الْمَعَالِي بِالْمِدَادِ

وهو يذكر لمرتبته أنه لا يكفيه لنيل المراد المطلوب ، ولا يدرى أيشكوه أم يشكو إليه ما ينزل به من الخن الصعاب ، فجيئه خال أبيض ليس فيه أي نقود وهو بياض في الظاهر لكنه في حقيقته أشد من السواد ، وإن طلبت صبرا عزني ولم أستطعه ، أو فكرت في قرض رَدَّنِي

(١) شعراء السودان ص ١١٨ .  
(٢) عزني : قهري . أمضيت : ألتني .

(٣) شعراء السودان ص ١٢٤ .  
(٤) الإسَاد : السير ليلاً ويريد نزول الهموم به .

الحياء عن طلبه من الناس . وتوقف لترجم للشيخ عبد الله البنا أحد شعراء النقد العنيف لأتمته ،  
ولصالح عبد القادر المشارك في النقد العنيف والشكوى من الزمن .

### الشيخ عبد الله<sup>(١)</sup> البنا

هو نجل الشاعر الشيخ محمد عمر البنا المترجم له بين شعراء المديح ، رزق به سنة ١٣٠٨ هـ/ ١٨٩١ م وحفظ القرآن الكريم في بيته ، ثم انتظم في مدرسة رفاة الأولية ، وتخرج فيها فالتحق بقسم المعلمين في كلية غردون وتخرج فيه سنة ١٩١٢ واشتغل مدرسا بالكلية فترة ثم عمل في مدرسة أم درمان . ويقول الأستاذ على الملك محقق ديوانه : « آخر عهده أنه كان رئيس شعبة اللغة العربية في المدارس العليا » . وقد فتحت ملكته الشعرية مبكرة ، وسرعان ما تألق اسمه مع علمين في الشعر هما محمد سعيد العباسي وعبد الله عبد الرحمن وهم شعراء أفذاذ وتسمن الثلاثة ذروة الشعر السوداني في النصف الأول من القرن الحالى ، ولكل منهم ديوان منشور يدل على شاعرية فذة . وكما تقيدنا في الشاعر الشيخ محمد سعيد العباسي بما نشر من شعره قبل نهاية هذا العصر الذى نؤرخ له حتى سنة ١٩٢٤ للميلاد كذلك سنصنع بالشيخ عبد الله البنا مع أن له فرائد كثيرة مثل زميليه بعد هذا العصر . ومن أروع ما أنشده له صاحب شعراء السودان ومحمد عبد الرحيم في كتابه نغفات اليراع قصيدته<sup>(٢)</sup> فى ذكرى الهجرة النبوية التى دوّت شهرتها ، وهى فى مخاطبة الهلال الذى أهلّ ليلة رأس السنة الهجرية ، وله يقول :

ياذا الهلال عن الدنيا أو الدين      حَدَّثْ فَإِنْ حَدِيثًا مِنْكَ يَشْفِينِي  
خَبَّرْ عَنِ الْأَعْصُرِ الْأُولَى لِتُضْحِكُنِي      فَإِنْ أَخْبَارَ هَذَا الْعَصْرِ تُبْكِينِي

وهو يسأل الهلال أن يحدثه عن الدين أو الدنيا حتى يشفى نفسه من آلامها إزاء السودان وشعبه وأحواله ، وحتى يدخل السرور على نفسه المكلمة الباكية من أخبار السودان وأبنائه . ويرفع أمام أبصار السودانيّين سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وعمر الفاروق ودمشق وبغداد وخلفائهما الذين أتاحوا للإسلام والعروبة مجدا عظيما ، لعل شيئا من سيرتهم يعود ، ويظهر من يحقق للأمة السودانية أو للأمة العربية عامة شيئا من هذا المجد ، ويتجه بالمخاطب إلى الشعب السوداني منشدا :

متعددة ( انظر الفهرس ) . وله ديوان باسم ديوان البنا  
( طبع الخرطوم ) .  
(٢) انظر القصيدة أيضا فى كتاب شعراء الوطنية فى  
السودان ص ٣٤١ والديوان ٦٤/١ .

(١) انظر فى ترجمة الشيخ عبد الله البنا وشعره كتاب  
شعراء السودان ص ١٥٧ وكتاب نغفات اليراع  
ص ١٢٩ وكتاب الشعر الحديث فى السودان للدكتور  
محمد إبراهيم الشوش ص ٥١ وفى مواضع مختلفة  
وكتاب تاريخ الثقافة العربية فى السودان فى مواضع

أُحِبُّتى ودعاءُ الحبِّ مرحةً      لا يُحزِنُتُكُمُ بالصَّحِّ تلقينى  
تَرْضَوْنَ بالدُّونِ والعلياءُ تُقسَمُ لا      تدين يوماً لراضى النفس بالدونِ  
والمجدُّ ينأى فلا تدنو مراكبه      من الجبان ولا ينقاد بالهونِ<sup>(١)</sup>  
تفرِّقُ وتوانُ واتباعُ هوى      إن الهوى لهوانٌ غيرُ مأمونِ  
ولا اعتبارٌ ولا رُقى لنازلةٍ      ولا احتياطٌ ولا رُحْمى لمغبونِ

وهو ينادى قومه قبل تقديم النقد العنيف لهم بقوله : « أحببى » تلطفاً وجذباً لهم كى يستمعوا إلى نقده لهم ونصحهم ويصدروا عنه ، ويقول لهم إنه قول غليظ ولكن باطنه الرحمة ويسجل عليهم أنهم يرضون بالدون ، والعلياء لا تخضع لمن يرضى به ، والمجد يبعد عنه إذ لا تقرب مراكبه من الجبان ولا ممن يرضى بالهون والهوان ، وهل شأنكم إلا تفرق وتشتت وتوان ، والرجوع إلى الهوى فى حياتكم ، وما الهوى إلا ذل ما بعده ذل ، ولا اعتبار ولا عظة ولا مراقبة لنازلة نزلت بكم ، ولا احتياط ولا حذر ، ولا رحمة لمغبون أو ضعيف واهن . ويهتف بأمتة :

يا أمةً جهلتُ طُرُقَ العلاءِ فلم      تسبق لغاية معقولٍ ومخزونٍ  
وللمدارسِ هيجرانٌ وسُخْرِيَّةً      وللمتاجرِ ضعفٌ غيرُ موزونٍ  
وللمفاسدِ إسراعٌ وتلييةً      ولا التفاتَ لمفروضٍ ومسنونٍ  
والناسُ فى القطرِ أشياءً ملفقةً      فإن تكشفَ فتنَ ضَعْفٍ وتوهينِ  
فمن غنى فقيرٌ فى مروءتهِ      ومن قوى بضعفِ النفسِ مرهونِ  
ومن طليقٍ حيسِ الرأى منقبضِ      فاعجبْ لمنطلقٍ فى الأرضِ مسجونِ

وهو يقول لأمتة إنك جهلت طرق العلاء والشرف ، فلم تجر فيها للوصول إلى غاية معقولة أو مخزونه تنتظرك ، وإلك لتهجرين المدارس بل تسخرين منها ، ولا تهتمين بمزاولة التجارة ، فالمتاجر ضعيفة ضعفا شديدا ، وتسرعين إلى المفسد ، بل ما أشد تلييتك لها ، دون أى التفات لواجباتك الدينية وما عليك من الفروض والنوافل . ويبلغ بالشاعر السخط أن يسمى أهل السودان أشياء ملفقة ، وكلما تكشف جانب منها ظهر فيه الوهن والضعف ، وهل بها إلا غنى فقير أشد الفقر فى مروءته فلا يمد يدا إلى البؤساء وإلا قوى ضعيف النفس ذليل مهين ، وحتى الحر الطليق يجبس رأيه عن أمتة ، وكأنه ليس حرا طليقا بل سجيناً مكبلاً بالأغلال . ويكثر مثل هذا النقد بوجهه الشيخ عبدالله البنا إلى قومه السودانيين معبرا عن نفسه السودانية الطامحة إلى أن تأخذ أمتة السودانية مكانتها فى العالمين . وهو مهما قرع وصور من عيوب المجتمع السودانى إنما يريد أن يستثير حمية السودانيين لكى يتحدوا ويطلبوا كل ما تطلبه النفوس

(١) الهون : الهوان .

الكريمة من العلاء والشرف والعلم ، وينصرفوا عن الملاهي والمفاسد ، ويؤدوا واجباتهم الدينية من الفروض والسنن ، حتى تصبح حياة الشعب عزيزة كريمة ، وحتى يشعر كل غنى بواجبه من عون أخيه الفقير ، وحتى لا يقعد القوى عن قيامه بواجبه لأتمته ، وحتى لا ينقبض سوداني عن بيان رأيه السديد في كل ما يعود على الأمة السودانية بالخير . وينشد له صاحب كتاب الشعر في السودان قصيدة<sup>(١)</sup> طويلة بعنوان : دعة على اللغة العربية ، وهو فيها يعرض ازدهارها وعلماءها وشعراءها النابهين ورجالاتها في العصور الماضية ، ويطنل في بكائها وعويله على ما صارت إليه في العصر الحاضر من ضيم شديد ، ويرد ذلك إلى ما أصاب أبناءها من النوم والهوان ، يقول :

أطلتُ عَتْبِي على الأيام حين جَنَّتْ      عليكِ فاستلبتُ أبهى مزاياكِ  
ولو أجابتْ لقاتلتُ إنهم نفرٌ      ناموا فحالتُ بما ناموا سجاياكِ  
ولو أجابتْ لقاتلتُ إن قومك قد      رضوا الهوان فطالتُ فيه سُكناكِ  
لو قَدَّروكِ لعادتُ فيك ناضرةٌ      روحُ الحياة وسرُّ الكونِ محياكِ

وهو يقول للغة العربية التي يكيها في قصيدته إنه أطال عتابه على الأيام لما جنت عليها وسلبتها بلاغتها الرائعة ، ويقول إن الأيام لو أجابت على هذه التهمة لتعللت بأن أبناءها ناموا على النهوض بها فتغيرت روعتها البيانية ، بل لتعللت بأنهم رضوا الهوان ، فطال سكنها له معهم ، ولو قَدَّروها في عصرنا حتى قدرها لعادت روح الحياة في أعطاف جسمها ناضرة ، وسرُّ الكونِ عودتها إلى الحياة . والشاعر بذلك يستثير قومه للنهوض بالعربية ، فينعتهم بالنوم والهوان كمن يثوروا غضبا ويحققوا للعربية كل ما يمكن من ازدهار ورونق وبهاء . وللشاعر نبويات متعددة منها نبوية طويلة شطر فيها بردة البوصيري ، وله أيضا شعر اجتماعي كثير .

صالح<sup>(٢)</sup> عبد القادر

لا نعرف شيئا عن نشأته ، غير أنه درس في كلية غردون ، مثل كثير من الشعراء المعاصرين له ، وعكف فيها على قراءة كتب الأدب ودواوين الشعر واستيقظت فيه ملكة الشعر ، وتخرج فيها وعمل موظفا بالبريد . وتغلب على أشعاره مسحة الحزن والشكوى ، ويقول محمد عبد الرحيم إنه كان دائما في صراع مع الأيام ، يعاني من نكد العيش . ويقول الأستاذ مصطفى طيب الأسماء إنه ممن سُردوا وسُجنوا في سبيل الوطنية، واعتقل بمصر متهما بالاشتراك في قتل

الحديث في السودان للدكتور محمد إبراهيم الشوش ص ١١٠ وكتاب دور الأدب في النضال الوطني في السودان لمصطفى طيب الأسماء ص ٣١ .

(١) انظر القصيدة في ديوان البنا ٩٦/١ .

(٢) انظر في ترجمة صالح عبد القادر وشعره نقتات البراع ص ١٥٣ ، وشعراء السودان ص ١٤٧ ، والشعر

السيرلى ستاك : حاكم السودان وسردار الجيش المصرى هناك ، وثبتت براءته فُرِدَّتْ إليه حرته .  
 وشعره يتوزع بين نقد عفيف لأتمته وشكوى صارخة من الزمن ، ومن النوع الأول قوله فى  
 قومه : أهل السودان :

قومٌ قيامُ الفضل بين صدورهم      كقيام هودٍ بين أمة هودٍ  
 لا يشعرون بما ألمَّ بشعبهم      فكأنما قُدُوا من الجُلمود<sup>(١)</sup>  
 ومن الحجارة ما يلين وإنهم      لا يعبأون بقارص التنديد<sup>(٢)</sup>  
 يا أمة غفلت وطالَ جمودها      ماذا كسبتِ بغفلةٍ وجمودٍ

وهو يبالغ فى استنارته لأتمته فيقول إن قومه لا يمكن أن يوتى الفضل ثماره بينهم فمثله  
 فيهم كمثل هود فى قومه لا يشعرون أى شعور بما حل بهم من هوان ، وكأنما خلقوا من  
 صخر ، ومن الصخر والحجارة ما يلين أما هم فلا يلينون ولا يحفلون بأى تنديد مهما كان  
 شديدا عنيفا ، ويقول إنهم أحالوا دنينا شقاءً وأغلالا ، ويهتف بأتمته ضَجِرًا غاضبا ناعتا لها  
 بالغفلة والجمود . ودائما كان يشكو من الزمن وما ينزل به من الكوارث والخطوب ، وإنه  
 ليصرخ :

ألا هل معينٌ أو مواسٍ فأشتكى      إليه همومًا يتُ عفوا لها مُلقَى  
 إلى الدهر أشكو وهو عنيّ معرضٌ      أصمُّ فلم يسمع ولم يحسن النطقا  
 صموتٌ ويقضى كلُّ ما لا أريده      فيا بئسَ ما يَقضى ويا شرَّ ما ألقى  
 وأسأله سلما فيشهرُ سيفه      فيا دهرُ ما أقسى ويا بوؤس ما أبقى  
 تحملتُ طفلا منك كلَّ عزيمة      وما العدلُ أنى بعد ذا علقمًا أسقى  
 وتطلبُ منى أن أغيرَ مبدئى      فيا بُعدَ مطلوبٍ به طارتِ العنقا<sup>(٣)</sup>

وهو يتمنى معينًا له أو مواسيا ليشتكى إليه هموما ثقالا باتت جائمة على صدره ، ويقول  
 إنه يشكو إلى الدهر ، والدهر معرض عنه كأنه أصم لا يسمع ولا ينطق ، صامت ويقضى  
 بكل ما لا أريده ، فذمًا لما يقضى به ويا شر ما ألقى من الآلام الطوال ، وأضرع إليه أن يسألنى  
 فيشهر سيفه ويسلّه لحرى ، فما أقساه ويا بوؤس ما أبقاه منى وقد تحملت كوارثه فى طفولتى  
 وليس عدلا أن يظل ينهكنى ويسقيني علقما مرا . ويطلب إليه الدهر أن يغير مبادئه حتى يجد  
 عونًا من بعض أصحاب الأمر والجاه ، فيقول إن ذلك مستحيل ، ويا بُعدَ هذا الطلب الذى  
 طارت به العنقاء إلى غير مآب . ويعود إلى الشكوى من الدهر منشدا :

(١) قدوا : خلقوا .  
 (٢) قارص : لادغ .  
 (٣) العنقا : طائر أسطورى .

لا تَلْمَنِي فَتَكُنْ مَتَّهِمِي      إن عَقَلِي لَمْ يَكُنْ مَتَّهِمًا  
وَلَمْ يَدَّهْرَ عَلَيَّ تَقْصِيرِهِ      أخطأَ الدَّهْرُ وَعَمَدًا ظَلَمًا  
أَبَدًا وَاللَّهِ لَا أُعْذِرُهُ      طَالَمَا جَارٌ وَحَقِّي هَضْمًا<sup>(١)</sup>  
وَطَوَّائِي فِي زَوَايَاهُ الَّتِي      ضَيَّعْتُ نَاسًا وَوَارَتْ أَمَّا  
وَلَكُمْ أُرْعَجُنِي مَتَّعِمًا      وَلَكُمْ وَجْهٌ نَحْوِي تُهَمَّا

وهو يخاطب صاحبه وقد رأى ما عليه من بؤس قائلا : لا تلمني ولا تتهمني فإن عقلي كما عهدته لا يأتي ما يتهم به ، ولم الدهر على تقصيره في حقى ، فقد أخطأ في ظلمي عمدا ولا أعذره فطالما ظلمنى وطالما نقصنى حتى وطوائى فى زواياه المظلمة التى طالما طوى فيها ناسا وأخفى أَمَا ، ولكم أزعجنى بما يصب على من انتقامه الشديد ، ولكم وجه إلى تهما ظالمة . ويتجه إلى قومه يريد أن يدفعهم إلى تلافى ما حدث لهم . منشدا :

مَنْ لِقَوْمِي ؟ إِنَّهُمْ قَدْ أَهْمَلُوا      مَا بَنَى آبَاؤَهُمْ فَانْهَدَمَا  
غَلَبَ الْيَأْسُ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ      ضَعُفُوا رَأْيَا فَزَلُّوا قَدَمَا  
يَا بَنِي قَوْمِي أَفِيقُوا إِنَّكُمْ      مَا خُلِقْتُمْ لِتَعِيشُوا غَنَمًا  
وَلَقَدْ يَجْزِنُنِي أَنَّى أَرَى      رَأْيَكُمْ مُخْتَلِفًا مَنَقَسَمَا  
فَأَفِيقُوا - يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ -      وَاطْلُبُوا الْعِلْيَاءَ وَجَارُوا الْأَمَمَا

وهو يتساءل من يبنه قومى إنهم أهملوا ما شاده آباؤهم فانهدم ، وغلب عليهم اليأس من تحقيق آمالمهم ، إذ ضعفوا رأيا فزلت بهم الأقدام ، ويقول يا بنى قومى أفيقوا من غفلتكم فإنكم ما خلقتم لتعيشوا غنما تتحكم فيكم الأمم ، وإنه لتجزنى فرقتكم وانقسامكم شيعا ، فأفيقوا من هذا المم الثقيل واتحدوا واطلبوا العلياء والمجد ، وجاروا الأمم الناهضة فى حياتها العاملة النشيطة .

### شعراء التصوف

كان التصوف شائعا منتشرا فى العالم العربى منذ أن ظهرت طرق التصوف السننى فى القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى ، وأخذت تتكاثر تلك الطرق بعد ذلك ، وكان طبيعيا أن يعم التصوف فى السودان منذ القرن العاشر الهجرى ، إذ كثر فيه بناء الخلایا الخاصة بالصوفية وكثر دعاة التصوف وخاصة دعاة الطريقتين : القادرية التى أسسها ببغداد عبد القادر

(١) هضم : نقص .

الجيلاني المتوفى سنة ٥٦١ هـ/١١٦٥ م والشاذلية لأبي الحسن الشاذلي التونسي المتوفى بمصر سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م ويقال - كما أسلفنا - إن الذي أدخل الطريقة القادرية إلى السودان الشيخ تاج الدين البهاري البغدادي . إذ نزل السودان في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري ودعا إلى تلك الطريقة وكثر أتباعه ، وشاعت بجانب الطريقة الصوفية القادرية الطريقة الشاذلية ، ويبدو أنها سبقت الطريقة القادرية في النزول بالسودان عن طريق بعض المغاربة النازلين فيه وطريق برنو وأيضا عن طريق مصر لأنها كانت شائعة بها شيوعا شديدا ، وألفت أسرة المجاذيب لها فرعا مهما في مدينة الدامر . ويخيل إلى الإنسان أنه لم يكن في السودان أحد طوال عصر الفونج إلا ينتسب إلى إحدى الطريقتين . وقد أفضنا في الحديث عن تلك الطريقتين في صدر عرضنا للمجتمع السوداني . وأيضا عن اتساع النزعة الصوفية فيه ، وقد دعا شعراؤهم دعوة واسعة إلى الزهد والتقشف ورفض متاع الدنيا انتظارا لمتاع الآخرة ، ويقول الشيخ فرح تكتوك المار ذكره والمتوفى بعصر الفونج كما أسلفنا<sup>(١)</sup> :

كَمْ دَوْدَةٍ فِي عَمِيقِ الْأَرْضِ فِي جُحْرِ  
يَأْتِي لَهَا رِزْقُهَا فِي الْوَقْتِ وَالْحِينِ  
أَلَا الزَّمِ الْعِلْمَ وَالتَّقْوَى وَمَا تَنْجَتْ  
مِنَ الثَّمَارِ تَفْرُ بِالْخَرْدِ الْعَيْنِ  
مَنْ بَاعَ دِينًا بِدُنْيَا وَاسْتَعَزَّ بِهَا  
كَأَنَّمَا بَاعَ فِرْدَوْسًا بِسَجِينِ<sup>(٢)</sup>  
وَلَقَمَةً مِنْ طَعَامِ الْبُرِّ تُشْبِعُنِي  
وَجِرْعَةً مِنْ قَلِيلِ الْمَاءِ تَرْوِينِي  
وَقِطْعَةً مِنْ قَلِيلِ الثَّوْبِ تَسْتُرُنِي  
إِنْ مِتُّ تَكْفَيْتُنِي أَوْ عَشْتُ تَكْسُونِي

فإنه يرزق كل خلقه حتى الدود في أعماق الأرض فلا تحملها لجلب رزق والزم التقوى وعبادة ربك تظفر في الآخرة بالخور جميلات العيون ، وما أشتى من بيع متاع الآخرة بمتاع الدنيا إنه يبيع فردوسا بواد من وديان جهنم وما متاع الدنيا ؟ إن لقمة من خبز القمح تشبع الشاعر وترويه جرعة من قليل الماء ، وتكفيه قطعة من قماش تستر جسمه ، إن مات كفتته ، وإن عاش كسته . ومررنا في كتاب الأندلس أن للزاهد أبي إسحق الإلبيري قصيدة ختم أبياتها بلفظ الجلالة . ويبدو أن صوفيا سودانيا رأى أن يحاكيه في هذا الصنيع ، فنظم مقطوعة ختمها بلفظ الجلالة أنشدها ودّ ضيف الله في طبقاته من مثل قوله<sup>(٣)</sup> :

اللَّهُ لِي عُدَّةٌ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ  
أَقُولُ فِي كُلِّ حَالٍ حَسْبِيَ اللَّهُ  
إِلَى مَتَى أَنْتَ فِي لُحُوِّ وَفِي لَعِبِ  
فَمَا مَقَالُكَ فِيمَا يَعْلَمُ اللَّهُ  
إِنْ الذَّنُوبَ الَّتِي قَدَمْتَهَا كُتِبَتْ  
إِنْ كُنْتَ نَاسِيَهَا لَمْ يَنْسَهَا اللَّهُ

(٣) طبقات ود ضيف الله ص ١٥٨ .

(١) شعراء السودان ص ٢٦١ .

(٢) سجين : واد في جهنم .

وهو يتخذ الله عدة في كل رتبة . وكلما نزلت به كارثة قال حسبي الله ، ويخاطب نفسه إلى متى هو في لعب وهو منصرفا عن تقوى الله الذى يعلم كل ذنوبه إذ كتبها الملكان الرقيبان عليه ، وكأنه يستحث نفسه على الرجوع إلى تقوى ربه والانصراف عن اللهو واللعب إلى النسك والعبادة . وتكثر عند المتصوفة فى عصر الفوج مثل هذه المعارضات لقصائد النساك ، وقد عارضوا ابن الفارض المصرى فى بعض قصائده الصوفية ، من ذلك معارضة الشيخ الصوفى موسى لنائيته المشهورة قائلا<sup>(١)</sup> :

سلامٌ على قومٍ إذا ذُكر اسمهم تهتَّكُ أستاذٌ إليهم برِجفةٍ  
تلاألأتِ الأنوارُ من نحو خالقي بوقتِ قيامي أو جلوسى بخلوةٍ

وهى لا تلحق تائية ابن الفارض فى روعة الصياغة والمعانى الصوفية ، ولكنها على كل حال تدل على نزعة صوفية قوية عند الشيخ موسى وإن لم يغمسها فى نور الشهود والفناء فى الذات العلية مثل ابن الفارض . واستمر تشطير الأبيات لأئمة الصوفية طويلا ، من ذلك ما أنشده صاحب كتاب الشعراء فى السودان من تشطير على الشامى السودانى لبعض أبيات لابن الفارض ، منها قوله :

( إن كان منزلتى فى الحب عندكم ) نحولُ جسمي وآلامي وإيلامي  
أو أن يكون جزا روحى التى زهقتُ ( ما قد رأيتُ فقد ضيَّعتُ أيامي )  
( أمنية ظفرت روحى بها زمنا ) حتى تركتُ مقامي بين أقوامي  
كانت بأيامِ صفوٍ إذ حلتُ فخلتُ ( واليومُ أحسبها أضغاثُ أحلام )

وهو يقول إن كانت منزلتى فى الحب الإلهي لا تزيد عن نحول وآلام متصلة ، أو يكون هكذا جزاء روحى التى بلغت الخلقوم فقد ضيقت أيامى . وإنها لأمنية فازت بها روحى زمنا حتى نسيت قومي ، وهو زمن كانت أيامه أيام صفو وهناء ، أياما حلوة مضت واليوم أحسبها أضغاث أحلام . ويقول الشيخ محمد سعيد العباسى مبتلا لربه<sup>(٢)</sup> :

يا ربُّ أنت حمايتي فتولني يا ربُّ أنت من النَّوَابِ مَفْرَعِي  
جُدْ لِي - وَزِينْ ظَاهِرِي - بعوارفِ وِباطِنِي  
وَأَقْبَلْ شِكَايَةَ فَاقَتِي وَتَطْلِبِي لِنَدَاكِ وَارْحَمِي ذَنْتِي وَتَوَجُّعِي  
أَنَا عَبْدٌ سَوْءٌ أَوْتَقْتَهُ ذَنْبُهُ أَنَا لَانْدُ بِجَمِي الرَّحَابِ الْأَوْسَعِ  
إِنْ لَمْ تَكُنْ لِي مِنْ ذَنْبِي أَثْقَلْتُ ظَهْرِي فَمَا أَقْوَى ، وَأَفْقَرُ مَرْتَعِي<sup>(٣)</sup>

(١) طبقات ود ضيف الله ص ١٥٤ وتاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ١٩١ .  
(٢) شعراء السودان ص ٣١٠ وراجع كتاب محمد سعيد العباسى للدكتور أحمد عبد الله سامى ص ٥٣ وديوان العباسى .  
(٣) مرتعى : معيشتى .

(١) طبقات ود ضيف الله ص ١٥٤ وتاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ١٩١ .  
(٢) شعراء السودان ص ٣١٠ وراجع كتاب محمد سعيد العباسى للدكتور أحمد عبد الله سامى ص ٥٣ وديوان العباسى .  
(٣) مرتعى : معيشتى .

وهو يضرع إلى ربه قائلاً أنت حمايتي فاحمني ، وأنت ملجئى من النوائب فأغثنى وجُدْ لى بإحسان منك أزيّن به ظاهرى ، وأودع بدخائلى نور المعارف ، وأقبلْ شكوى حاجتى لكرمك الفياض ، وارحم ذلى وتوجعى لرأفتك ، إني عبد سوء من عبادك المذنبين وأنا لاأذ بحمى ساحتك الواسعة ، وإن لم تكن لى وملجئى من هذه الذنوب الثقيلة فما أفقر مرتعى ومعيشتى . وعارض الشيخ محمد الطاهر المجذوب يائية ابن الفارض المشهورة بقصيدة استهلها بقوله<sup>(١)</sup> :

زائرى فى الطيف هل من عودةٍ      تحىّ منها مهجتى بل أصغرى  
والأصفران : القلب واللسان . وللشيخ محمد سعيد العباسى تخميس لبنتين للشبلى الصوفى على هذا النمط :

هواى أنت وهل فى ذلك من حرجٍ      أنتم ملاذى وأنتم فى الدجى سرجى

يا سادة قويت فى حبكم حُججى

( لا أبرح الباب حتى تُصلحوا عوجى      وتقبلونى على عيبى ونقصانى )  
قلبى بكم يا سرة الحى فى شغفٍ      دمعى بعهد ربوع الظاعنين وفى

بالله عطفاً على صبّ لكم دنفٍ

( فإن رضيتم فىا عزى ويا شرفى      وإن أبيتكم فمن أرجو لعصيانى )

والتخميس محكم ، وشطور العباسى الستة متداخلة فى بيتى الشبلى بدقة ، إذ كان بارعا فى صوغ شعره وأبياته .

#### ٤

### شعراء المدائح النبوية

تعنى كثيرون من شعراء السودان بمدائح الرسول ﷺ ، مثلهم فى ذلك مثل الشعراء فى جميع بلدان الوطن العربى ، إذ هو المثل الرفيع لكل مسلم فى تقواه وعبادته لربه وورعه . وقد أخذت هذه المدائح تتكاثر بالسودان منذ القرن الثالث عشر الهجرى/التاسع عشر الميلادى حتى لينظم بعض الشعراء دواوين كاملة فى المدح النبوى مثل محمد عثمان الميرغنى ودويوانه : « النور البراق فى مدح النبى المصداق » والسيد أحمد بن إدريس ودويوانه : « رياض المدح » والشيخ أبى القاسم أحمد هاشم ودويوانه : « روض الصفا فى مدح المصطفى » . وملتقى عند الشيخ الأمين الضرير المتوفى سنة ١٣٠٢ هـ/١٨٨٥ م بمدحة نبوية ورى فيها بسور القرآن الكريم

(١) تاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ١٩١ .

على غرار مدحة نبوية لابن جابر الأندلسي ، أنشدنا منها قطعة في ترجمته بكتابتنا عن الأندلس ، ويقول الشيخ الأمين الضريو في فواتح مدحته<sup>(١)</sup> :

ما للنساء كمثل المصطفى ولدًا  
أعرافه المسك والأنفال وافرًا  
إذ منه مائدة الأنعام والعُقلا  
لمن به توبةٌ كهي تذهب الوجلا<sup>(٢)</sup>  
به ليونس أنسٌ ثم هودٌ هدى  
ويوسفٌ حسنه من أجله كمالا

والآيات تذكر بالترتيب سور النساء والمائدة والأنعام في البيت الأول وسور الأعراف والأنفال والتوبة في البيت الثاني وسور يونس وهود ويوسف في البيت الثالث ، واسم السورة يلتحم بمعناه في البيت ، والأعراف جمع عرف بمعنى المعروف والأنفال العطايا ، وهما اسم السورتين بعد الأنعام ، وتتوالى السور بترتيب المصحف . ويختتم القصيدة بالصلاة على الرسول ﷺ . وللشيخ أبي القاسم أحمد هاشم المترجم له في شعراء الغزل العذرى مدحة نبوية بديعة يقول فيها<sup>(٣)</sup> :

أحمدٌ ولأنت أكرمُ مرسلٍ  
أحمدٌ ما أنت إلا رحمةٌ  
يا بنَ العوالى الشَّمِّ من مُضَرِّ ويا  
يا سيدى يا خاتمَ الرسل الكرا  
مدحتك آياتُ الكتابِ ونوّهتُ  
كلُّ الكمال فأت غايه حدهُ  
وأحقُّ من بمدىحه يُتقربُ  
وبشارةٌ ، لك كلُّ خيرٍ يُنسبُ  
سيرَ الوجود لك الفناء الأرحبُ  
م ومنْ إليك اللتجا والمهربُ  
بفضائلٍ عن دَرَكٍ غيرك تُحجَّبُ  
ما نال ما قد نلتَه متقربُ

والشيخ أبو القاسم يخاطب الرسول قائلا إنه أحق مرسل يتقرب المسلم بمدىحه إلى ربه ، وقد أرسله رحمة وبشرى لعباده ، وإليه ينسب كل خير ، إنه ابن السادة العظام من مضر ، وسر الوجود جميعه ، وله المجد الأرحب ، إنه خاتم الرسل الكرام والملجأ لكل خائف فزع ، وقد مدحته آيات القرآن بمثل ( وإنك لعلى خلق عظيم ) ونوهت له بفضائل دون غيره ، إنه عين الكمال وغايته ومنتهاه ، ولم ينل أحد من ربه ما نال من فضله . والمدحة بديعة ولم يترجم له صاحب نفثات اليراع ولم ينشد له صاحب شعراء السودان سوى هذه المدحة مع أن له ديوانا جميعه مدائح نبوية باسم « روض الصفا في مدح المصطفى » كما أسلفنا . وكان يعاصره

(٣) شعراء السودان ص ٢٣ .

(١) شعراء السودان ص ٢٢ .

(٢) الوجمل : الخوف .

الشيخ عمر الأزهرى وأُنشد له صاحب الشعراء فى السودان ثلاث مدائح نبوية ، وسنفرده له ترجمة . وللشيخ إبراهيم هاشم مدحتان نبويتان يقول فى إحداهما<sup>(١)</sup> :

هذا محمدٌ الذى ملاً البلاد هدىً وجاذ

وهو الموصِّل للطريق المستقيم وللسِّداد

وهو المبشِّر والمخذر والمحرِّض للجهاد

وهو الموصِّل للسَّلام فى القيامة والمعاد

والله أعلى ذكوره وأذاعه فى كل ناذ

وهو يقول إن هدى محمد ﷺ ملاً البلاد ومازال وجوده وبقيض ، وهو الموصِّل لطريق السعادة فى الدنيا والآخرة ، طريق الرشيد والسداد ، وهو المبشِّر بنعيم الله والمخذر من عذابه وجحيمه والمحرِّض للجهاد فى سبيله ، وهو الموصِّل للأمن والسلامة يوم القيامة وفى الحياة الآخرة ، وقد أعلى الله ذكره ، ونشره فى كل ناد بين الناس أجمعين . ويلقانا الشيخ عبد الله عبد الرحمن ، وستترجم له عما قليل . ويقول عثمان هاشم فى الاحتفال بليلة الميلاد النبوى سنة ١٣٣٩ هـ / ١٩٢١ م منشداً<sup>(٢)</sup> :

بجلال ذكرك تفخر الأعمامُ      وبحسن يومك تزدهى الأيامُ  
يا ليلة الميلاد حسبكِ مفخرا      نورٌ عليه من النبى تمامُ  
ضاءت به الدنيا وأزهر نورها      بالمسلمين وأشرق الإسلام  
شرفاً بأحمد خير من وطىء الثرى      وله على السبع الطباق مقامُ  
لولاك يا بن الأكرمين لما اهدت      تلك الشعوب ولا استقام نظامُ

وهو يحى ليلة ميلاد الرسول ﷺ ، ويقول لها إن الأعمام تفخر بذكرك وتبته بيومك الأيام وحسبك مفخرا وزهوا وعظمة ما رافق الرسول فى مولده من النور العظيم . أضاءت به الدنيا وعظم نورها بالمسلمين وأشرق الإسلام وتبلىج فى الآفاق نوره ، شرفا لا يماثله شرف بالرسول العظيم خير إنسان وطىء الثرى وقد صعد به ربه وأتاح له فى معرجه مقاما فوق السموات السبع ، ولولاه ما اهدت الشعوب الإسلامية ولا استقام لها ملك ولا حكم ولا نظام . ويكى فى مدحته الإسلام مقارنا بين ماضيه وحاضره وما أصاب أقوامه وشعوبه من التخاذل . ويعود إلى تحية العام الهجرى فى قصيدة ثانية باكيا لإسلام والمسلمين وما عمَّ بينهم من عداة وأحقاد ، ويهتف<sup>(٣)</sup> :

(٣) شعراء السودان ص ٢٢٩ .

(١) شعراء السودان ص ٥٩ .

(٢) شعراء السودان ص ٢١٧ .

عَدَتْ مَلَّةُ الْإِسْلَامِ تَبْكِي تَأْسُفًا  
 تَسُوحُ عَلَى أَيَامِهَا وَشِبَاهِهَا  
 لَقَدْ عَمِلَ الْأَعْدَاءُ كَيْدًا لَسَحَقَهَا  
 تَذَكَّرْتَ الصَّدِيقَ إِيَّانَ مَجْدِهَا  
 تَنَادَى بِصَوْتٍ يَقْطَعُ الْقَلْبَ حَسْرَةً  
 كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ فَوْقَ الْبَسِيطَةِ مُسْلِمٌ  
 فَيَكْفِي لَهَا الْبَيْتُ الْعَتِيقُ وَزَمْرُمُ  
 فَهِيَ هِيَ بَيْنَ الْقَوْمِ نَهَبٌ مَقْسَمٌ  
 فَبَلَّلَهَا سَحَّحٌ مِنَ الدَّمْعِ مُسْجِمٌ<sup>(١)</sup>  
 دَرَاكُ أَبَا حَفْصٍ فَقَدْ كَدَتْ أُعْذَمُ

وملة الإسلام تبكى متحسرة ، كأن لم يبق فوق الأرض مسلم ، تنوح على أيامها الماضية وشباب مجدها الغابر، ويكفي لها المسجد الحرام وبئر زمزم ، فقد اجتمع أعداؤها على الكيد لها، وتلك ديارها نهب مقسم بينهم . وتذكرت أبا بكر الصديق العظيم في أوائل مجدها وعزتها وذرفت الدمع مدرارا، وتغول بصوت محزون منادية الفاروق عمر بن الخطاب أدركتني قبل أن يفتك بي الأعداء. وللشيخ مدثر البوشى المولود سنة ١٩٠٣ للميلاد مدحة نبوية بديعة ، استهلها بنقد عنيف لشعبه السوداني ، يريد أن يدفعه إلى العمل والعلم على هدى الشريعة المحمدية، وينشد<sup>(٢)</sup> :

اللَّهُ أَكْبَرُ هَذَا يَوْمُ مَوْلَدِهِ  
 حَيَّتْ يَا لَيْلَةَ الْمِيلَادِ مَشْرِقَةً  
 حَيَّتْ يَا لَيْلَةَ الْمِيلَادِ جَالِبَةً  
 حَيَّتْ يَا لَيْلَةَ الْمِيلَادِ كَمْ رَقِصْتُ  
 حَيَّتْ يَا لَيْلَةَ الْمِيلَادِ إِنْ لَنَا  
 هُوَ النَّبِيُّ الَّذِي عَمَّتْ فَوَاضِلُهُ  
 فَالْكَوْنُ مَبْتَهَجٌ مِنْ نُورِهِ الْحَسَنِ  
 عَلَى الرَّبُوعِ بِوَجْهِ سَاطِعِ الزَّيْنِ  
 لِلْبَشَرِ مَذْهَبَةٌ لِلْهَمِّ وَالْحَزَنِ  
 فَيْلِكِ النَّفْسُ فَحَاكَتْ مَائِسَ الْغَضَنِ  
 فَخَرَا بِتَجْدِيدِ ذِكْرِي خَيْرِ مُؤْتَمَنِ  
 كُلُّ الْوُجُودِ كَصَوَّبِ الْعَارِضِ الْهَتَنِ

والشيخ مدثر يكبر معظما يوم مولد الرسول الذي عمت الكون بهجته من نوره الوضاء ، ويحیی ليلة ميلاده التي استحالت على الآفاق ليلة مضيئة بوجه مشرق مزدان بالأضواء والأنوار ، وقد جلبت البشر والسرور ومحت الهم والحزن ، ويقول كم رققت فيها النفوس طربا محاكية الغصون المختالة ، وإن لنا فيها لفخرا عظيما بتمجيد ذكرى خير الرسل ، إنه النبي الذي عمت أفضاله كل الوجود كما يعم مطر السحاب الهاطل أطباق الأرض . وللشيخ مدثر همزية اختصر بها السيرة النبوية في ١٢٣ بيتا<sup>(٣)</sup> .

### الشيخ عمر<sup>(٤)</sup> الأزهرى

هو الشيخ عمر بن عبد الله الأزهرى ، من ذرية عقيل بن أبى طالب ، ولد سنة ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٣ م وتوفى سنة ١٣٣٣ هـ / ١٩١٥ م رزق به أبوه الصوفى من أعمال القطارف جنوبى

(١) النبوة كتاب الشعراء فى السودان ص ٢٤٩ راجع  
 نفاثات البراع ص ٩٨ وكتاب الشعر الحديث فى السودان  
 للدكتور الشوش فى حديثه عن المدح النبوى وشعراء  
 الوطنية فى السودان ص ٣١٠ وما بعدها .

(٢) سج : سيل . مسجىم دائم السيلان .

(٣) شعراء السودان ص ٣٣٦ .

(٤) أنشد هذه الهمزية صاحب نفاثات البراع ص ١٧٥ .

(٥) انظر فى ترجمة الشيخ عمر الأزهرى ومدائحه

نهر عطبرة رافد النيل ، وعنى به أبوه ، فحفظ القرآن الكريم ، وبعد حفظه درس على شيوخ مختلفين علوم الفقه واللغة العربية . وفى سن العشرين رحل إلى القاهرة واختلف إلى حلقات شيوخ الأزهر ينهل منها ما شاء ، حتى ثقف العلوم الدينية وعلوم العربية ثقافة جيدة ، وعاد إلى موطنه وفيه عنى بتدريس الفقه والنحو وعلوم البلاغة ، وتقلد منصب القضاء فى عهد الدعوة المهديّة وأقرته دولة الحكم الثنائى فى منصبه. وكان عالماً جليلاً وشاعراً مجيداً ، وأنشد له صاحب الشعراء فى السودان ثلاث مدائح نبوية ، وفى إحداها يقول عن الرسول منوهاً به ومشيداً :

المتقى المبعوث من بين الورى للخلق طراً إنسه أوجانه  
لولاه ما كان الوجود ولم يكن ملك ولا أعوانه  
حتى ولم يك آدم كلاً ولا شيت ولا نوح ولا طوفانه  
ونجا الخليل بجاهه من نار نم روو لعمري إذ جفا خلائنه

وهو يصف الرسول بأنه المختار المبعوث لهداية الخلق جميعاً من الإنس والجن ، ويستضىء بشعاع ممن نوهوا قبله بالحقيقة المحمدية وأن الرسول علة الوجود ، فيقول لولاه ما كان الوجود ولا دول ولا ملوك ولا كان آدم ولا شيت ولا نوح وطوفانه . وبجاهه نجا إبراهيم الخليل من نار نمروذ واستحالت برداً وسلاماً . ويمضى فى القصيدة قائلاً : بجاهه نجا كليم الله موسى من فرعون وهامانه ، وباسمه دعا ذو النون ربه فى ظلمات البحار فاستجاب له ، وبالمثل استجاب لأيوب وكشف عنه ما به من ضر ، فهو سِرُّ الوجود الذى لولاه ما خرجت الدنيا من العدم ، وهو مبدأ الأنبياء والرسل ومنتهاهم وكل ما حدث لهم من معجزات بفضله الأزلى ، ويقول الشيخ عمر فى نفس القصيدة :

جمعت خصال المرسلين له كما جمعت الذى فى كتبهم فرقانه  
كم قد عفا عن أساء وكم هدى من ضل عن طرق الهدى تبيانه  
يمشى ويكنس داره ويخيط ثوبه با قد عفا والصفح ذلك شأنه  
يا من علا فوق الطباق ومن علا الـ رسل الكرام هو المكين مكانه  
يا سيد الثقلين يا مجلى الصدا يا عين هذا الكون بل إنسانه

وهو يقول إن كل الخصال الفاضلة للرسل جمعت له كما جمع قرآنه كل ما فى الكتب السماوية قبله . ومن صفاته الكبرى العفو وكم هدى أناساً كانوا ضالين ببيانه الرائع ، وإنه مثال للتواضع كما حكى كتاب السيرة وقالوا إنه كان أحياناً يكنس داره ويخيط ثوبه ، وكان دأبه الصفح والعفو والغفران ، ويقول إنه علا فى معراجة فوق السموات السبع وعلا الرسل وسما فوقهم ، إنه سيد الإنس من الجن ، وإنه يجلو الصدا وكل غشاوة ، وهو عين الكون

بل إنسانه الذى به يصير . وهذه المدحة أروع مدحه الثلاث ، وهو فى المدحتين الآخرين  
يعنى بيان معجزات الرسول التى ترددها كتب السيرة .

الشيخ عبد<sup>(١)</sup> الله عبد الرحمن

ولد فى جزيرة توتى المواجهة للخرطوم سنة ١٣٠٩ هـ / ١٨٩٢ م لأبيه القاضى  
عبد الرحمن بن الأمين الضرير شيخ علماء السودان وكان شاعرا مجيدا وممرت بنا مدحة نبوية  
بديعة له ، وعني به أبوه ، فوجهه لحفظ القرآن الكريم وأتمه سنة ١٣٢١ هـ / ١٩٠٣ م  
ولزم أباه فى تنقله قاضيا شرعيا بأبى حمد ودنقلة والقطينة ، وكان أهم أساتذته إذ درس عليه  
العربية والفقه وعلم التوحيد أو الكلام . والتحق بكلية غوردون سنة ١٣٢٣ هـ / ١٩٠٦ م  
بقسم المعلمين والقضاة . وتخرج فيه سنة ١٣٢٨ هـ / ١٩١١ م وعُين مدرسا للغة العربية  
بالمدارس الثانوية فى وزارة المعارف السودانية . وتفتحت ملكته الشعرية مبكرة وما هى  
إلا سنوات حتى اشتهر ، ومن فرائده نونية فى وصف الطبيعة السودانية استهلها بقوله :

كم للطبيعة فى السودان من فتنٍ وكم لأطيّارها من سيّخِرِ الحانٍ

وقد نظمها سنة ١٩٣٤ بعد هذا العصر الذى نورخ له ، وهو أحد ثلاثة أفزاد من الشعراء  
السودانيين تعاصروا فى النصف الأول من القرن العشرين ، وكانت لهم شهره مدوية فى عالم  
الشعر السودانى هو ومحمد سعيد العباسى وعبد الله البنا ، ولهم جميعا شعر وطنى واجتماعى  
كثير ، وكل منهم خليق بدراسة مستقلة . ويقول صاحب كتاب شعراء السودان : « له فى  
المدايح النبوية الباع الطويل والقدح الملقى » وأشد له نبوية ألقاها سنة ١٣٤١ هـ / ١٩٢٣ م فى  
حفل المولد النبوى ، وفيها يقول :

وذكرنا للعديم وللغنى	نبيّ كان للدنيا جمالا
إذا ما جيئنا بالأمر الفرى <sup>(٢)</sup>	نبيّ قد يُجير على الليالى
بمنطلق اللسان على البذرى	لعمرك ما النبيّ - فدتك نفسى -
ولا مُهدى الملامة للمسى	ولا هليج تزعزه خطوب
يردّ عوادى الدهر العتى <sup>(٣)</sup>	ولكن قد عرفناه رءوفاً

فالنبيّ ﷺ كان جمالا لا يماثله جمال وكثرا ماديا للفقير ومعنويا للغنى ، وكان يجير على  
الليالى إذا ما جاءت بالخطوب الخطيرة ، وكان عف اللسان حتى مع البذرى المذموم ، ولم

(١) انظر فى ترجمة الشيخ عبد الله عبد الرحمن وشعره  
نفاتح البراع ص ١١٥ وكتاب الشعراء فى السودان ص  
١٨٧ وكتاب الشعر الحديث فى السودان للدكتور محمد  
إبراهيم الشوش ص ٦٤ وما بعدها وفى مواضع مختلفة  
وكتاب الشعر والشعراء فى السودان لأحمد أبوسعد  
(٢) الفرى : المختلق ويريد الخطير .  
(٣) عوادى الدهر : نوابه . العتى : الجبار .

(١) انظر فى ترجمة الشيخ عبد الله عبد الرحمن وشعره  
نفاتح البراع ص ١١٥ وكتاب الشعراء فى السودان ص  
١٨٧ وكتاب الشعر الحديث فى السودان للدكتور محمد  
إبراهيم الشوش ص ٦٤ وما بعدها وفى مواضع مختلفة  
وكتاب الشعر والشعراء فى السودان لأحمد أبوسعد

يكن جَزَعًا تعصف به الخطوب الخطيرة ، وكان رقيق الحس حتى لا يلوم المسيء على إساءته ، وكانت الرأفة والرحمة ملء فؤاده ، وكان يعرف كيف يرد كوارث الدهر الجبار . ولا يلبث أن يقول في الرسول الكريم :

وهو أصلُ الوجودِ بلا مراءٍ      وهو سرُّ الحياة لكل حَيٍّ  
أتى بالملَّةِ السمحاءِ يدعو      إلى الأخلاق والشرعِ السويِّ  
وأقسمُ ما سحابٌ مكفهرٌ      كأن يريقه قسَماتُ مَيٍّ<sup>(١)</sup>  
يرؤى الأرض من غورٍ ونجدٍ      بأجودَ من بَنانِ الهاشميِّ  
وما أسدُّ له بالغاب زارٌّ      يُصمِّمُ الأذنَ من فَرطِ الدويِّ  
بأشجعَ منه في الهيجاءِ قلبًا      إذا برقتُ شباةُ السَّمهريِّ<sup>(٢)</sup>

والشيخ عبد الله يستلهم في البيت الأول فكرة الحقيقة المحمدية وأن الرسول ﷺ الأصل الأزلُّ للوجود قبل نشأته وكل حياة لموجود في الكون مستمدة منه . ويصف الشاعر الدين الحنيف بأنه دين سمح وأن شرعه سوى سوى عادل لا إفراط فيه ولا تفريط ، ويقسم أن السحاب المعتم لكثرة أمطاره وبريقه الذي يشبه قسَمات وجه « مَيٍّ » في ضيائه ، المرؤى للأرض في وديانها وأنجادها أو مرتفعاتها العالية ليس هذا السحاب أكرم من بنان الرسول الفائزة بالجدود ، وليس الأسد الغضنفر الذي يزأر في غابه زئيرا يصمُّ دويه الأذن بأشجع من الرسول إذا حميت الحرب . وللشاعر مدحة نبوية دالية أنشد منها صاحب كتاب الشعراء في السودان مقدمتها الغزلية وقوله في وصف معجزة القرآن الخالدة :

مَتَانِي حَارَتِ الشِعْرَاءِ فِيهَا      وَرَدَّتْ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيذِ  
مَتَى مَا يَتْلُوهَا أَحَدٌ بِنَادٍ      يَقُولُ الْمُتَنَدِّي هَلْ مِنْ مَزِيدِ

والثاني يريد بها آيات القرآن الكريم لأنها تعاد في السنة حفاظها . ويقول إن الشعراء حارت في روعتها البلاغية وبُهِت كل جبار معاند للرسول ورسالته ، وحين يتلوها أحد بناذ يشدُّ إليها انتباه الناس ويطلبون المزيد منها لبلاغتها الرفيعة المعجزة .

(٢) شباة السمهري : حد السيف .

(١) المكفهر : الأسود المتعم .